ثالوث الشيطان ٢

أشباح الخيتعور

رواية

د. محمد داود

المحتويات

تمهيد: ٦

الفصل الأول: زوجي من الجن ١٤

الفصل الثاني: تائهون..... ١٥

الفصل الثالث: حياة جديدة..... ٢٦

الفصل الرابع: ليل مظلم..... ٣٦

الفصل الخامس: وثيقة الشيطان..... ٥٠

الفصل السادس: الغيرة القاتلة ٦٠

الفصل السابع: قتل بأمر الجن..... ٧٠

الفصل الثامن: الضريح..... ٨٥

الفصل التاسع: الروح والجسد..... ٩٧

الفصل العاشر: صرخة الأشباح ١٠٧

الفصل الحادي عشر: فتاة الكهف..... ١٢٨

الخاتمة..... ١٣٧

(إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ)

سورة الأعراف. آية (٢٧)

الخوف هو أقدم وأقوي عاطفة عرفها الإنسان وأقوي وأقدم نوع من الخوف هو الخوف من المجهول.

ه ب لافكرافت

رسالة المؤلف

لقد أصابت أشباح الخيتعور العالم كله فهي الأخطر، أنها أفضل أشباح للشياطين في تاريخ البشرية. لقد صار الناس يكتمون أسراراً مرعبة، ونحن نحاول أن نعرف تلك الأسرار.

د. محمد داود

الفصل الأول

زوجي من الجن

في الطريق العريض المتجه إلى البيت كانت هند مصدومة من الأحداث التي أخبرها بها الطبيب في المستشفى، وخاصة حينما أطلق في وجهها كلمات مصيرية حاسمة عن ظروفها الصحية والنفسية، على الرغم من أنه كان محاولاً أن يجاملها. لم تعرف هند منذ أن سمعت تلك الأحداث، ماذا تفعل بعد خروجها من المستشفى؟ تريد أن تعرف الحقيقة، وشكها في أن زوجها هذا كان حقيقياً أم لا؟ على الرغم من أنها أيقنت أنه كان رجل من عالم آخر؟ وتتساءل في نفسها: اين هو؟ لماذا أختفي هكذا؟ لماذا غاب عني؟ هل يكذبون على حينما قالوا لي ما حدث؟ كيف لي أن أفقد الوعي وانقطع عن الحياة؟ لكنها لم تعتقد في ذلك رغم ما انتبهت لما هي فيه وسوف تنتظر لتتأكد. وكيف يكون لي زوجاً من هذا العالم؟ يا تُرى هل أنا أريده حقاً؟ هل أظل انتظره؟

ضبط عزام صوت الإذاعة من سيارته حتى يحصل علي صوت نقي. لعلعت صوت الإذاعة. المذيع يتحدث عن بدأ مصر إقامة منطقة عازلة على الحدود مع قطاع غزة الفلسطيني بإخلاء منازل عشرات الأسر في مدينة رفح شمال

سيناء، في محاولة لمنع تهريب الأسلحة وتسلل الذئاب المنفردة، وذلك بعد الهجوم الانتحاري الذي أدى إلى مقتل ثلاثين جندياً. تحدث عن التطورات الأخيرة في الشرق الأوسط. الحرب الأهلية السورية حديث الساعة. الجميع يتحدث عن النصر غير المكتمل لهم، الجميع يتحدث عن الأزمة السورية والحرب على سوريا، معاناة الفلسطينيين تستمر. الكل يتحدث باسمهم، وهم الغائب الأكبر عن الساحة. منظمة التحرير الفلسطينية تنتقل من بلد إلى آخر. تتجرع هزائم متوالية. لجنة الأمم المتحدة المعنية بممارسة الشعب الفلسطيني لحقوقه غير القابلة للتصرف، أعلنت ان هذا العام عامًا للتضامن مع الشعب الفلسطيني. بينما كانت هند تفكر في وضعها ووضع بلادهما مصر وقالت في نفسها "لا أحد يجرؤ على ارتكاب هذه الجرائم في بلادنا. الزوجة تنتزع من زوجها وأبنائها والزوج يرحل عن زوجته وأبنائه، جثثاً تعرضت للتعذيب ومات أصحابها بسبب الجوع في السجون، انها وحشية منهجية انها جرائم ضد الإنسانية.

قطعت السيارة المسافة في وقت لا يبدو طويلاً من المستشفى الي البيت. رغم أن هند شعرت بأن زمن الطريق طويل جداً. حتى انها شعرت في لحظات معينة بان السيارة لن تصل أبداً. حينما وصلوا إلى البيت، كانت هند متوترة جداً من الداخل،

وكانت تمشي دون أن تدري ما يدور حولها، ولم تنتبه لما هي فيه. ولكن ومن حسن حظها أنها الآن لم تعيش بمفردها بالبيت. الآن معها أخاها عزام وأختها وجدان لكنها تنظر إليهم أحياناً بغضب مكتوم بسبب وجودهما، فهي تريد العيش بمفردها وتنتظر انه من الممكن عودة الغائب.

*****

لم تخرج هند من الشقة منذ أكثر من أربعة أيام حتى ولو لشراء أشياء تخص المطبخ والغسيل. انتبه عزام لذلك ففسره بالتحولات النفسية المزاجية لها، لاسيما وأنها واجهت في الفترة الأخيرة أحداث غريبة لم يفهمها أحد حتى الآن، ثم بدأت بالصلاة في مواعيدها، وأخذت تقضي وقت فراغها في قراءة القرآن!

كان عزام يخرج مبكراً أحياناً ويتركها مع أختها وجدان ويعود متأخراً فيجدها نائمة أو يجدها متعبة، لكنه استغرب من انكماشها النفسي، وتهربها من أي تلاحم في الحديث معهما. انتبهت أختها إلى أنها تقضي معظم وقتها في غرفة النوم، وخمن أنها منشغلة بالصلاة والعبادة وحتى تخرج مما هي فيه. وبرغم استيائها من ابتعادها عنها عندما حاولت أختها وجدان التحدث معها، إلا أنها ضغطت على نفسها

وألزمتها بالصمت لبضعة دقائق أخرى حتى تستعيد هند مزاجها.

صارت هند كالمأخوذة، وتقوم أختها وجدان بالواجبات البيتية من طبخ وغسل ملابس بسرعة شديدة وتجلس هي في غرفة النوم. لم تكن كما تظن أختها بأنها تصلي أو تقرأ القرآن، وإنما كانت تستلقي على السرير منتظرة أن تفهم ما هي فيه.

*****

في اليوم التالي من خروجها من المستشفى كانت خائفة من دخول غرفة نومها، فبعد أن أختفي زوجها من البيت بقيت وحدها تعيش في عالمها على الرغم من وجود اخواتها معها. حاولت أن تجد لنفسها أي حجة للخروج من الشقة، ولا تعرف كيف يحضر زوجها في ذهنها، وتمنت لو أنه جاء اليها على الرغم من أنها أيقنت من أنه ليس من بني آدم، فأخذت تتخيل الضوضاء عند الباب الخارجي للشقة وكأنها تنتبه لوجوده. لكنها لم تخرج من الشقة تتأكد من تلك الضوضاء، وكأن ثمة قوة خفية تشل إرادتها، فبرغم خوفها من البقاء حينما تكون وحيدة إلا أنها لا تستطيع الخروج وعلى الرغم من أنها تريد الخروج.

تظل هند في النهار تتنقل بين المطبخ وغرفة الاستقبال وتتجنب الدخول إلى غرفة النوم، وأخيراً حزمت أمرها فتوجهت إليها بهدوء وترددت ولكنها فتحت بابها وبسملت ثم دخلت.

كانت الغرفة خالية من أي أثر غريب، لا ضباب خارجها ولا برودة، ولا ضوء يوحي بأن هناك شيء غريب في الغرفة، كان السكون يعم الغرفة.

جلست على السرير للحظة ثم استقلت على ظهرها منتظرة أن يحدث شيء ما أو يأتي زوجها عوني، لكن لم يحدث أي شيء، ولا في اليوم الثاني ولا في اليوم الثالث، بل صارت مهووسة بالبقاء في الغرفة متمنية أن يظهر لها عوني مرة أخري. وهكذا سكنت الغرفة معظم وقتها خلال تلك الأيام الفائتة، ولم تغادرها إلا عندما تأتي أختها لتقدم لها العشاء ثم تعود إليها ثانية، وحينما تشعر بدخول أختها احياناً تغمض عينيها وتبدي وكأنها تغط في النوم، فتجلس إلى جانبها، وأحياناً تحاول أن تشعرها بوجودها، وهذا ما أثار استغرابها من نفسها، لم تحس بأية رغبة في التواصل معهما، لكنها شاردة الذهن تفكر في لقاء زوجها عوني الذي لا تعرف عنه شيء وتتذكر وعوده لها بأنه لن يتركها.

*****

يئست هند من ظهور زوجها ثانيةً، فأخذت تعود شيئاً فشيئاً إلى طبيعتها وحياتها الاعتيادية، حتى أنها أخذت تشك بأن كل ما جرى معها لم يكن أكثر من رؤيا وأوهام اختلقها عقلها، كما شعرت بالذنب إزاء أخواتها الذين تركوا أولادهم في تلك الظروف حتى يتفرغوا لرعايتها، فهي لأول مرة تنقطع عن التواصل الاجتماعي مع الآخرين لفترة طويلة هكذا. لكن لا أحد يبدي لها تذمراً أو يجبرها على التفاعل معه، بل فالكل يعرف ما هي فيه.

*****

مر أسبوع، استيقظت الدكتورة هند على ضوضاء قادمة من المطبخ عرفت حينها أن أختها قد استيقظ قبلها، وربما هي الآن تسعى لإعداد القهوة، فأحيانا كانت تجلس لرعايتها فجراً، أو في وقت متأخر من ساعات ما بعد منتصف الليل، لتقوم بإعداد ما تحتاجه هند من طعام أو القهوة أو الشاي.

تتذكر هند أنها سابقا كانت تتمنى أن ينظر إليها زوجها عوني نظرةً. كانت تحبه على الرغم من أنها كانت تهاب شخصيته. كانت مليئةً أعجاباً به وبرجولته وخبرته في ايقاظ مشاعرها، بينما الآن منشغلة بل ومهووسة به كإنسان من عالم آخر، كما

استغربت من حالتها النفسية، إذ أنها فكرت في وجوده معها بالغرفة أكثر من مرة، وراودتها الرغبة في رؤيته والالتقاء به، برغم أنها عانت ما عانت منه ومن هذا العالم الخفي سابقاً، بل تتعجب الآن من نفسها، ومن رغبتها المجنونة التي تستقر في أعمق أعماقها في أن يظهر لها ثانية.

انتبهت الآن إلى أن أختها صارت في غرفة الاستقبال، فنهضت عن السرير بتثاقل. دخلت إلى غرفة الحمام. أقفلت الباب. فتحت الصنبور على الماء الحار والبارد معاً، فانهمر الماء البارد أولا ثم صار دافئا شيئا فشيئاً إلى أن صار ساخناً قليلاً.

خرجت من الحمام كانت تفكر في أشياء كثيرة مرت على ذهنها المتعب، لكن ما سيطر عليها هو زوجها عوني، الجني المعين، إذ أخذت تفكر بكل تفاصيل الأحداث التي مرت بها. فجأة ندت عنها صرخة خافتة حينما سمعت صوت أختها تسألها:

- هند هل هناك شيء؟ هل أنت على ما يرام؟

فقالت مرتبكة وهي تحمل المنشفة:

- لا شيء. أنا على ما يرام.

كان عزام يتصفح الجريدة حينما دخلت هي الي الصالة وألقت عليه تحية الصباح:

- صباح الخير عزام.

تأملها للحظات ثم قال لها:

- صباح الخير يا هند.

صمتت للحظات وهو ينظر إلى حالتها ثم سألها فجأة:

- هند، ماذا بك؟ هل أنت لا زالت تشعرين بشيء ما؟ هل تشعرين بشيء يقلقك الآن؟

استغربت سؤاله وأجابت دونما اهتمام:

- لا، أبداً، لا أحس بشيء، ربما بعض التعب والتفكير. مما مر لي من احداث سابقة.

نظرت إليها أختها وكأنها تريد أن تعرف أيضاً ما يدور في أعماقها وسألتها:

- التفكير؟ التفكير بماذا؟

- ليس هناك شيء محدد؟ عموماً على مراجعة الطبيب بالمستشفى.

- هل تحتاجين أن آتي معك؟

- على أن أعرف أولا إن كان لي أن أزور الطبيب بالمستشفى بعد حجز موعد أم لا، وبعدها يمكنني الذهاب، ففي آخر لقاء لي معه قبل خروجنا من المستشفى قال لي من الضروري أن أتابع معه.

صمت عزام للحظات ثم نظر إليها مستفهماً:

- لماذا؟

- لا أدري، ربما ليتحدث معي ولمتابعة حالتي فقط.

تقول هذا لأخوتها ولا ترغب في أن تقول لهم أن لديها رغبة في الخروج والبحث عن زوجها عوني.

فوجئ عزام بهذا الموضوع، واستغرب من سير الأمور والأحداث التي يمرون بها، لذلك فسّر مع نفسه غرابة حالت أخته هند بأنها لا زالت مشغولة بمسألة العالم الآخر. ولكونه كان على موعد لمغادرة الإسكندرية والسفر الي القاهرة من أجل الاطمئنان على زوجته وأولاده فقط مر أكثر من أسبوعين على مغادرتهم.

ألقى الجريدة التي كانت بيده وقام خارجاً وهو يقول:

- لابد أن نتأكد من حالتك الصحية اتصلي وسألي عن وجود الطبيب وحددي معهم موعداً لغد. سأغادر الآن الي القاهرة ثم أعود في مساء الغد ان شاء الله.

- اليوم سوف احجز الموعد من إدارة المستشفى وسوف اذهب غداً.

- تأكدي من وجود الطبيب واصطحبي معك وجدان.

*****

وفي الصباح الباكر، فجأة انبثقت في أعماقها رغبة عارمة في أن تصعد الي أعلي البناية كي تسأل عن الشيخ وزوجته المنتقبة وقد كان كل هذا خارج سياق أفكارها، صعدت الي اعلي وبعد أن قرعت الباب مرات لم تجد أحداً، ثم هبطت متجهةً الي غرفة الحارس وسألته فأخبرها أنه حينما جاء للعمل هنا وجد هذه الشقة مغلقة ولا أحد يسكن بها وحينما سألتً عن أصحابها قالوا إنها كانت لرجل كهلاً ويقولون إنه كان شيخاً وكانت معه زوجته المنتقبة.

صعدت الي الطابق الأول، ثم طرقت الباب فقال لها الجار أنه يسكن هنا منذ عشرين عاماً وجاء الشيخ وزوجته وسكنا هنا منذ عشر سنوات، لكنه بعد أكثر من عامين من عيشهما

هنا وجدتهم الشرطة في شقتهما مذبوحان وبدون أعضاء ولا أحد يعرف حتى الآن تفاصيل هذه الجريمة الغامضة، منذ سبعة أعوام تقريباً أو أكثر.

أيقنت هند حينها أن ما هي فيه لم يكن حقيقاً وكأنه سراب، ثم همست في نفسها: ولكن زوجي كان يعيش معي أين هو الآن؟ ثم هبطت وخرجت من البناية متجهةً الي بيت الإمام، فأخبرها أحد الجيران وقال لها لقد توفي الإمام منذ أكثر من ست أعوام وهذا البيت لا يسكن به أحداً حتى الآن. اتجهت الي مقر الشركة التي كان يمتلكها زوجها لم تجد مقراً لها! اتجهت الي الشركة التي كان يعمل بها من قبل فقد تصل الي خيط يوصلها الي مكانه ولكنهم أخبروها أنه ترك الشركة منذ أكثر من ثلاثة أعوام تقريباً وقد أنشأ له شركة واستقل بها، أيقنت هند أنا سبل الوصول اليه قد تكون مستحيل.

*****

في منتصف الليل في حدود الساعة الثانية، استيقظ عزام من نومه وفوجئ بأنه يفكر بهذا الموضوع كثيراً خاصة بعد أنه شعر بانشغال أخته مرة أخري بالحديث كثيراً عن العالم الخفي واختفاء زوجها عوني الذي كان صديقاً له قبل أن

يكون زوجاً لأخته. فقد أختفي عوني في ظروف غامضة ولا يعرف أحد شيئاً عنه حتى الآن.

يتذكر عزام حينما تعرف عليه في السنة الأخيرة بالجامعة، واستغرب من سير الأحداث إلى هذه الأمور الغامضة، لذلك فسّر مع نفسه غرابة حالت أخته بأنها مشغولة بمسألة اختفاء زوجها، ويتذكر أن عوني كان يريد الاستقرار الدائم في مدينة الإسكندرية من أجل إنشاء مشاريع هندسية كبري وليتولى عزام له متابعة الشركات.

مضي عزام الي غرفت النوم ومضت هند إلى المطبخ فهي نادراً ما تذهب للنوم مبكراً، وفي تلك اللحظات سمعت حركة عند باب الشقة فأسرعت إلى الباب الخارجي لتفتحه، وفي طريقها إلى الباب سمعت صوت خطوات أحد وهو يهبط السلم، وحينما وصلت الباب وفتحته كأن أحد خارج الباب ثم اختفى في زاوية السلم المتجهة نحو الطابق الأرضي، فأحست بالخوف وشعرت في الوقت نفسه بالندم لأنها لم تطِل وقفوها ولو لدقيقة عند الباب كي تعرف ما هذا الصوت.

أغلقت الباب ثانية ووقفت خلف الباب للحظات. فجأة، شعرت بالخجل المصحوب بالمهانة والإذلال لما هي فيه. وقتها شعرت بالسخرية من نفسها وفكرت مع نفسها هل أنا عاقلة أم

مجنونة؟ لقد كنت أبكي لأيام بسبب أساءته لي خلال حياتي الماضية معه. بينما الآن أريد أن أعرف عنه كل شيء! هل حقاً هو من بني آدم؟! وكيف لي أن أعيش معه طوال الأيام السابقة دون أن أعرفه؟ ولماذا أركض وراء هذا الرجل الذي هو سبب تعاستي في الحياة؟ هل أنا أمرأه ساقطة؟ لماذا هذا اللهاث وراء العالم الخفي الذي لا اعرف فيه رأسي من حذائي؟ هل هذا العالم هو الذي صار يشكل معنى لوجودي ولا يمكنني أن أتصور الحياة بدونه؟ كيف يمكنني أن أفق مما أنا فيه، بين حياتي الطبيعية وبين اللهاث وراء هذا العالم الخفي؟ ولماذا هو على الرغم أنني أعرف أنه شيطان، بل شيطان أسود؟ هل أنا امرأة غير عاقله؟ ألا يكفي ما حدث لي منه؟ بلى إنه كان يلبي رغباتي من قبل؟ لذلك أنا أفكر فيه؟ هل هذه هي القيم التي تربيت عليها؟ ألم أستغفر ربي وأتوجه إلى ديني؟ ما هذا الذي يجري في أعماقي؟ صرت لا أفهم شيئاً؟

استرجعت في لحظات شريط حياتها السابقة متوقفة عند محطات علاقاتها بهذا العالم الخفي، بدءاً من علاقاتها الأولى حتى زواجها من الجني.

تتذكر حينما كانت في السنة الأخيرة من دراستها الجامعية، عرفت من صديقة لها أنها عاشت نفس التجربة مع دجال في رحلتها للبحث عن علاج الآلام والوخز الذي كان في كتفها، وقد عجز الأطباء عن منحها الفرصة للعلاج.

تتذكر حينما تخرجت من الجامعة وذهبت الى دجال أنيق وعصري يسكن في حي المعادي بالقاهرة. وقد طلب منها الاسترخاء والهدوء وفك عضلات جسدها حتى تستطيع أن تحصل على العلاج الذي يشفيها. ولم يكن من الصعب عليها كطبيبة مثلها أن تكتشف الى أين ينتهي هذا العلاج. فهبت من مكانها. وجذبت جسدها بعيداً عنه. ورفعت قبضتها من ظهرها وغادرت بيته.

تتذكر أنها في مرة ثانية ذهبت الى دجال كان لا يتردد في طلب المال من المترددين عليه، لقد مد يده الى كتاب اصفرت أوراقه واهترأت أطرافه ثم أخذ يبسمل ويتمتم بكلمات غير مفهومة. وفتح الكتاب على إحدى صفحاته بسكين صغير كان موضوعاً فوق الكتاب ثم تناول ورقة بيضاء وناولها في يدها وفتح زجاجة صغيرة مليئة بسائل أحمر وأسقط منه عدة قطرات في منتصف الورقة وطلب منها أن تقوم بتطبيقها أربع مرات وأن تضغط عليها بأصابعها بينما كان مستمراً

فيما يقول ويتمتم. وبعد أن تاه في شبه غيبوبة لعدة دقائق ثم انتفض في مقعده فجأة وفتح عينيه المغلقتين وكأنما استعاد وعيه. ثم طلب منها أن تفتح الورقة وفتحت الورقة التي ارتسم في وسطها شكل أقرب الى الرسوم السريالية بسبب تشبع الورقة بالسائل الأحمر بطريقة غير منتظمة، وهب المشعوذ واقفا في رعب وهو يطوح بيديه الهواء وأخذ يتابع بإصبعه الشكل المرتسم على الورقة. فقد كان الجني السريالي المرسوم باللون الأحمر كما اكتشفت بنفسها هو تجسيد لما يسمى باختبار روشنباخ أحد الطرق المتبعة في التحليل النفسي. حيث تعرض بقعة من الحبر الأحمر على المريض ليقوم بتفسير الشكل الذي يراه أمامه وبناء على هذا التفسير يستطيع المعالج النفسي أن يعرف بعض جوانب شخصية المريض. على أنه رغم مما كان يتضح لها في رحلتها الغريبة فإنها تؤمن بأن ما يجرى في هذا العالم من أساطير خيالية هو حقيقة أحيانا.

سألت نفسها: هل أنا مستعدة أن أخون نفسي مع هذه الاشباح مرة أخري، هل اخون نفسي مع زوجي المختفي عوني، الذي فجئت بأنه من عالم غريب عني، والذي بدي لي شبحاً، أنه كان من عالم الجن الأسود؟ ماذا أفعل إذا ظهر لي مرة أخري؟ ووجدت نفسها تجيب على نفسها: نعم أنا مستعدة

لذلك. وأخذت تفكر في حالتها وما بها. ألا يكفيني ما أنا فيه حتى صرت أبحث عنه مرة أخري؟

*****

الفصل الثاني

تائهون

ثمة أفكار، ووساوس وأحاسيس بالخوف والهلع وتصرفات تقوم بها هند، فظن أخاها عزام أنها لو ظلت تعيش هنا بالإسكندرية لصارت علاقتها بهذا العالم الخفي تزداد ولن تنتهي، وسوف يهدد حياتهم العائلة وهي قد تكون مدركَةً أو غير مدركة أن هذا يشكل تهديدًا لهم في حياتهم معها، وبالتأكيد فعزام كأي أخ يكره أن يري أخته في تلك الظروف الغريبة. لذلك وبعد تلك الليالي التي مرت عليهم، وبعد انقلاب حالت هند النفسية الي الأسوأ، بدأ هو وبشكل طبيعي يحدثها عن ضرورة الانتقال إلى بيتهم في القاهرة. حيث أخبرها بأن وضعها هنا لم يكن الأفضل وأنها تحتاج الي مكان يساعدها على الاستقرار النفسي. وبأن لديه مشاكل في العمل الذي يعمل فيه إذا تأخر وظل معها هنا بالإسكندرية وعليه العودة الي عمله ولا يستطيع تركها بمفردها، وأن أختها وجدان لابد أن تعود الي بيتها فقد أهملت أولادها خلال الأيام الماضية لانشغالها بظروفها المرضية.

أخذ عزام يرجع مبكراً جداً إلى البيت كلما خرج، وبعض الأحيان لا يخرج نهائياً، بل يبقى في البيت معهما لأيام ولا

يخرج إلا لضرورات العمل وهي أيضاً لا تخرج الي للضرورات وتظل جالسة في البيت مع أختها وجدان.

*****

وفي القاهرة، كان لهم بيتاً كبيراً، لكنه في الواقع ليس بيتاً عادياً، كان بيتاً ذا واجهة عريضة مشرقة، ونوافذ عريضة مفتوحة، وستائر ناصعة البياض، وكان أبناء عزام وزوجته ابتسام يطلان من النوافذ يرقبان عودتهم بسيارة عزام.

مازالت هند تتذكر العشب الأخضر، مئات الزهور وذلك الهدوء الذي يتصف به المكان. كان مشهد البيت عظيماً ولا يقارن ببيوتنا هذه الأيام، بيوت الفقراء المتواضعة. البيت به الكثير من الغرف، إلى جانب حمامات كثيرة، وكان أخاها عزام يسكن بالطابق الثالث وتعيش هي الآن بمفرها في الطابق الثاني في إحدى الشقق وبدأت هند تستمتع، بالساعات التي تلت ذلك فالأطفال الصغار كانوا أولاد مدهشين، وشعرت وكأنها الآن محظوظة لأنها تكون عمة لهم.

كانت سارة وفارس أجمل طفلان رأتهما هند في حياتها ولم تندهش هند من ذلك فأمها سيدة جميلة أيضاَ، ومن فرط سعادتها الآن في بيت أبيها لم تنم هند جيداً كل ليلة. وكانت شقتها كبيرة وغرفة نومها أيضاً، وكأنها من أحسن الغرف

في البيت وسريرها نفسه كان من ذلك النوع الذي يمكن أن تراه في القصور.

*****

حينما دخلت هند الي غرفت نومها بدأت تتذكر هذا البيت الجميل الأبيض ذو النافذة الخضراء والأشجار التي تحتضنه، انه انسجام اللون الأخضر مع اللون الأبيض، أنه بيت أباها الذي كان يلبس الجلباب المصري الجميل وكانت بالطبع حياتها سعيدة من قبل في بيت أبيها، تتذكر حينما كانت صغيرة وهي تلعب بالدمية وملامحها تنطق بالبراءة.

تتذكر منطقة اول الشارع الذي كان آخره المتجر الكبير الذي كان يمتلكه اباها، الآن يقف فيه رجل مسن ذو شارب يبيع الزيت والسكر والجبن وغيرها من أصناف البقالة، يمكنك ان تري محل لملابس الجاهزة وبجانبه محلاً يعلق ملابس للأطفال وعباءات النساء وحجابهن.

تتذكر رائحة طعام أمها في الظهيرة أنه كان الشارع المصري الأصيل، وفي نهاية الشارع كان المسجد الكبير الأنيق الابيض اللون مزخرف بعناية والشيخ عباس الذي يعرفه جميع افراد الشارع شيخ ملتحي طويل القامه يلبس غطاءً للرأس وجلباب ابيض وكان يضع كفية على جانبي

رأسه ويؤذن للصلاة داخل المسجد أمام مكبر الصوت القديم وكان المسجد ينعم بكثير من المصلين.

تتذكّر حينما كانت صغيرةً في السابعة من عمرها، كيف كان أباها كل ليلة جمعة يأتي ومعه شيخ جليل لقراءة القرآن، ويجلسون في صالة البيت، كانت هند هي الابنة الصغرى المدللة للعائلة.

تتذكّر أنها لم تعاني من الحرمان المادي قط، فكل ما تشاء كان موجوداً حولها. وكل ما تتمناه يتحقق ويستجاب. فوضع العائلة من الناحية المادية كان جيداً، إذ أن والدها كان تاجراً للتوابل. وحينما بدأت الذهاب إلى المدرسة عيّن والدها أحد العاملين لديه لاصطحابها إلى المدرسة وعند نهاية اليوم الدراسي. وكم كانت تكره ذلك، لأنها كانت تحب أن تلعب مع بقية التلاميذ وأن ترجع معهم دون رقيب، فهم يرجعون جماعات وأثناء عودتهم إلى بيوتهم يثرثرون ويضحكون وأحيانا يمرون بمواقف مضحكة وغريبة، يتبادلون الحديث عنها في اليوم الثاني بالمدرسة وعندما يتجمعون أثناء الفواصل بين الدروس، فكانت تحس بالأسى لأنها لم تمر بأي موقف مسل وطريف مثلهم.

تتذكر الآن أنها كلما كبرت ازدادت شدة رقابة والدها عليها، ولكنه كان لا يقسو عليها وكأنها ابنته الوحيدة. كثيراً ما كانت تشكو لأمها التي كانت تلوذ بالصمت عندما كانت تسألها: لماذا يعاملني أبي بهذه الرقابة وكأنني أبنته الوحيدة؟ حينها كانت أمها تحضنها وتقبلها مخففة عنها، وتقول لها بأن أباها يُحبها من أعماق قلبه.

تتذكر كلما تقدمت هي بالعمر توسعت الهوة بينها وبين أبيها والتصقت أكثر بأمها. وحينما دخلت الجامعة شعرت بأن أباها كان يشجعها على ذلك، فقد طلب منها مواصلة الدراسة بعد انتهاء المرحلة الجامعية إلا أن إصرار أمها على ألا تكمل دراستها فهي تريد زواجها أولاً، ولكن أباها هو الذي أنقذها من مصيرها الذي أرادته أمها لها، وحصلت على درجة الماجستير في الطب.

تتذكر حين انتهت الدكتورة هند من دراستها الجامعية، كانت البلاد تمر بمشاكل اقتصادية وثورة أهلية بين الحكومة والشعب في أحداث يناير، التي كان يصمد فيها الشعب بأكمله في ميدان التحرير لتغير النظام، وكانت الجثث القادمة من هناك تبث الرعب في قلوب الأمهات! ولقد استمرت المشاكل الناجمة عن هذه الثورة حتى بعد أن أنهت عامين من دراستها

لدرجة الماجستير. حيث استمرت الأحداث الي ثورة يونيو. لذلك ما أن حصلت على شهادة الماجستير في الطب حتى عملت بها.

تتذكر حينما اتفقت مع أمها في بداية تخرجها ان تؤجل موضوع الزواج لفترة حتى تتحسن أوضاعها الصحية وأن تنتهي من دراستها العليا وخصوصاً ان عمرهما مناسب ولكن أمها لم تبق على اتفاقها معها وأصرت على زواجها ولخوفها من أن تتأخر في الزواج.

تتذكر حينما اقتحمت العالم الخفي الذي بلا قاع وبلا جدران ولا يعرف فيه المرء رأسه من حذائه عندما أيست من الطب ويأس الطب منها. عندما وقف العلم عاجزاً عن انتشالها من طوفان الألم الهادر.

تتذكر حينما كانت علاقتها بهذا العالم غريبه. وتتعجب كيف انتقلت هي من مهمتها في تخفيف آلام المرضي الي أن تصبح هي نفسها حالة مزمنة من حالاتها؟ كيف تحولت من التشخيص والتفسير وتقديم العلاج الى المرضي والبحث عن الدواء والشفاء؟ إن حياة سيدة متصلة بالتمرد لا تعرف ما هي فيه الآن.

تتذكر حينما تمردت على سلطة الخوف الذي كان بسبب شبح جاءها يوماً في بيتها القديم ولم تتحدث عنه مع أحد والذي كان برغبة هذا الشبح وإلا ستكون العواقب وخيمة.

تتذكر حينما كانت تعيش في هذه الضاحية التي كانت في أطراف القاهرة وقبل أن تتحول الى العيش مع زوجها عوني في مدينة الاسكندرية، فهمت هند أن الصداع الذي يسيطر عليها بجنون وبلا علاج هو شبح يعبث برأسها ويحرمها نعمة النوم والسكينة. لقد بدأت علاقتها بهذا العالم المجهول ولا تعلم أنها ستتحول الى كارثة ومأساة هددت حياتها ومستقبلها. وحاولت إقناع جهازها العصبي اللاإرادي بأن الحياة جميلة فابتلعت أنواعاً مختلفة من أقراص أمريكية لكنها لم تنجح.

تتذكر حينما بدأت رحلتها الغريبة. والتي بدأتها بزيارة المعالجين الروحانيين والأضرحة ثم وجدت نفسها تسقط في ذلك العالم الذي بلا قاع. في رحلة مثيرة وطويلة ومتشابكة في عوالم العالم الخفي.

*****

كانت هند من غير المتوقع أن تتوافق مع زوجة أخيها السيدة ابتسام منذ الوهلة الأولي. فقد كان لها بعض القلق تجاها،

ولكنها لم تشعر بهذا. بدت هي الأخرى في منتهي السعادة لعودتها الي بيتها، بيت ابيها، وكانت زوجة أخيها أكبرها سناً وبسيطة وواضحة، وأمينة. أما بالنسبة للطفل فارس فقد شعرت بالسعادة لرؤيته أكثر لأنه يشبه والدها.

في البيت كانت الدكتورة هند تجلس مع أولاد عزام، فتملأ رأسهما بالكثير من الحكايات. تحكي لهما عن الاستعمار الفرنسي الذي استوطن البلاد لسنوات طويلة، ثم الاستعمار الانجليزي حتى كادت مصر أن تصبح أوربية، ثم تحدثهما عن أبطال بورسعيد الأحرار، الذين قدموا أرواحهم من أجل أن تنعم بلادهم بالاستقلال والكرامة. كما كانت تحدثهما عن شهداء الوطن، الذين فقدوا حياتهم في سبيل نصرة الوطن في حرب أكتوبر المجيدة. وكانت تستفيض في القول فتخبرهما عن حكايات ابطال أكتوبر التي كانت تسرق عقول الناس.

تحكي لهم عن جدهما محمد المصري الذي شارك في حروب كثيرة حيث خاض خمسة حروب ضد إسرائيل خلال هذه الفترة منذ أربعينيات القرن الماضي وحتى حرب أكتوبر المجيدة. كما حارب في هذه الأثناء أيضا ضد الجيش البريطاني والجيش الفرنسي. وشارك أيضاً بشكل كبير في حرب شمال اليمن الأهلية، والمناوشات المصرية الليبية في

سبعينيات القرن الماضي. فتحكي لهما أنه كان يحسن كل شيء يقوم به. وكان حينها لا يستقر له مقام في مكان.

كانت تحكي لهما عن الثورات العربية. وتحكي لهما أننا هنا في مصر لم نفرق بين مسلم ومسحي فكلنا شركاء في الوطن. كلنا أهل وأقارب وأحبة، تحكي لهما بأننا إن تمكنا من القضاء على الإرهاب كله سوف تصبح الدول العربية كلها بلداً واحداً. تحكي لهما بأن الإسرائيليين هم الذين يحاولون بدسائسهم ومكرهم أن يفرقوا بيننا، لكننا لم نسقط لهم في فخ التفرقة ابداً.

******

بعد مرور الأيام الأولي لها في البيت، بدأت تشعر بالاضطراب، فكانت تنهض من نومها عدة مرات وتتجول في انحاء غرفتها، ثم تخرج تتطلع الي الأثاث والستائر والبوادر الأخري التي تدل علي حسن حظها. تري كل يوم صباحاً تباشير الصباح وتسمع تغاريد الطيور الأولي من خلال نافذتها المفتوحة. وقبل ذلك بفترة سمعت أصواتاً أخري صادرة من داخل البيت وأصغت مرة أخري عسى أن تتكرر مرة أخري، وذات مرة تعرفت على الصوت فقد كانت صرخة طفل واهنة آتية من بعيد، وبعد ذلك سمعت صوت

خطوات خفيفة في الروضة الموجودة خارج غرفتها، لكن هذه الأصوات لم تكن بالدرجة التي يمكن أن تزعجها في ذلك الوقت، فهل هذه الأصوات تكون لها علاقة بما سوف يحدث بعد ذلك؟

*****

يخرج أخاها عزام صباحاً وكل يوم الي عمله وهي قد استقالت من عملها سابقاً برغبة من زوجها عوني الزوج المجهول والتي لازالت تندهش لاختفائه. كانت هند تظل في غرفتها تشاهد التلفزيون منتظرة أن تأتي لزيارتها وجدان في تعتاد على زيارتها كل يومين أو ثلاثة أيام ولتتواصل من خلالها مع العالم الخارجي وتتحدث إليها وتفهم منها ما ينتظرها أحياناً.

وبعد مرور الأيام قررت هند العودة الي العمل فهي طبيبة مهارة لذلك لم تطول فترة البحث لها عن العمل. في أول يوم في عملها كان هناك من ينتظرها أيضاً، جاءتها زميلتها الدكتورة غادة وهي امرأة محجبة في الثلاثين من عمرها، سمراء البشرة ذات جمال هادئ وتعمل مع زوجها الدكتور فتحي في ذات المستشفى، وبدأوا بالحديث معها في بعض التعليمات والأخلاقيات الطبية التي تقررها المستشفى.

وبعد هذا اليوم أحست هند يقيناً أن الدكتورة غادة سرعان ما تتوافق معها واعجبت بسلوكها في العمل ولم تستطع أن تخفي سعادتها بذلك، وتحدثت معها هند بطبيعة الحال عن حياتها بطريقة غير مباشرة وكانا يفهما بعضهما بعضا.

- ومدير المستشفى، يبدو جيداً؟

- في الحقيقة يا دكتورة هند، نعم. يبدوا كذلك.

ثم توقفت الدكتورة غادة للحظة وهي تبتسم.

- سيتعاطف معك السيد المدير.

- لماذا؟ هل صدر مني شيئاً ما؟

- لا. ولكن اشعر أنه سرعان ما يتعاطف معك، فقد حدث هذا معي من قبل عندما تم تعيني للعمل هنا في بادئ الأمر.

- تقصدين بسبب اضطرابي في العمل أحياناً؟

- نعم. لست أنت أول طبيبة تشعر بذلك الاضطراب ولن تكوني الأخيرة.

ضحكت الدكتورة هند وقالت:

- أوه، أنا أعرف حالتي وأعرف ذلك جيداً. متي يكون يوم عطلتي هنا؟

- أعتقد في نهاية الأسبوع.

واتفقت الدكتورة غادة علي ضرورة مساعدة الدكتورة هند لها وكان هو أول شيء تتفق معها فيه وبسهولة واعتقد ان هذا ساعدها كثيراً في عملها. وكانت النتيجة أنهم أصبحا صديقتين بعد مضي يومين.

*****

بدأت تفكر الدكتورة هند مرت أخري بل أكثر وبخوف وهلع في الأرواح الهائمة والأشباح والجن والشياطين، على الرغم أنها أحيانا كانت قد نسيت ذلك قليلاً منذ خروجها من المستشفى وبعد تحسن حالتها الصحية، ولكن انشغالها باختفاء زوجها عوني يجعلها في غير إدراك تنشغل في تلك الأرواح. تجلس كل يوم كعادتها تشاهد الأفلام التلفزيونية، وفجأة ظهر أمامها فلم سينمائي يتحدث عن الأرواح والأشخاص المسكونين بها، وهذا يجعلها تشعر بالخوف أكثر من تلك الأشباح. فهي كأي شخص تنسى كل ذلك بعد انتهاء الفيلم. ولكنها صارت تفكر بالأرواح والأشباح مرة أخري دون أن تشاهد أي فيلم!

كانت تلك التصورات عن العالم الخفي تثير رعبها الحقيقي، خاصة حينما تجد نفسها وحيدة في ظلمة البيت، وحينما يراودها كابوس يجعلها عاجزة عن الحركة من مرقدها، كل هذا كان يرعبها بشكل حقيقي.

*****

كانت هند، بعد أن تنجز واجباتها البيتية كإعداد الطعام وغسل الملابس، تقضي بعض وقتها أمام التلفزيون، ثم تتجه للصلاة وقراءة القرآن بانفعال ورهبة، وصارت هند حينما تستغرق في الصلاة وقراءة القرآن تفز من أي حركة أو نأمة تسمعها في غرفتها الفارغة، وبدأت تتصور بأن ثمة شبحاً أو روحاً تدخل عليها الغرفة أو تقف خلفها وهي مستغرقة في القراءة، فتتوقف حينها عن القراءة للحظات ثم تلتفت مباشرة إلى الخلف فلا تجد أحداً، فتستعيذ وتقوم من جلستها لتذهب إلى غرفة الاستقبال لتشغل التلفاز وترفع صوته عالياً ليقضي على هذا الصمت والسكون والوحدة التي صارت ترعبها.

*****

كانت ابتسام زوجة المهندس عزام تدرك بأن هناك هوة غامضة مليئة بالأسرار تكتنف العلاقة ما بين هند وزوجها السابق الغائب عوني، لكنها لم تصل أبداً إلى حقيقتها. ولا إلى

إضاءة أية من أسرارها! كل ما توصلت إليه هو أن هذا الرجل الذي تزوجته الدكتورة هند كان ربما من الجن أو ان له علاقة بالعالم الغامض الخفي، ورغم هذا كانت تري أنه يحبها بكل طهرها وخطاياها إن كانت لديها خطايا، لأنها تشك بأن لها خطايا فهند بالنسبة لهم قديسة، شهيدة. ولكنها لا تعرف عمق العلاقة بينها وبين ذاك الحبيب. وتعرف ان هند كما يبدو لم تستطع لظروفها العائلية الغامضة أن تعرف أين هو الآن. ويبدو أن علاقتها لازالت قوية بهذا العالم الآخر. ولكنها بقيت قوية حتى بعد خروجها من المستشفى. على الرغم من أن هند إنسانة مثقفة ولها حضورها وسمعتها ورزانتها أحياناً.

*****

حينما عاد عزام إلى البيت وجد الجو مكفهراً إذ أخبرته زوجته ابتسام مباشرة بأن أخته هند انتكست صحياً مرة أخرى، وأنها تتألم، وقد أخذت بعض المسكنات ونامت. صُدم هو عند سماع ذلك وانتابه شعور بالذنب إزاء أخته، هبط الي شقتها، فتح الباب عليها وفي غرفتها وجدها راقدةً في نوم عميق، فأغلق الباب بهدوء وصعد الي شقته ودخل غرفة مكتبه، وحينما دخلت زوجته ابتسام عليه قال لها بأنه يريد أن

يكون وحده، وحينما سألته إن كان يحتاج لشيء فأخبرها أنه لا يحتاج لأي شيء، سوى أن تتركوه وحده الآن.

*****

وفي مساء ذات اليوم، وبعد تناول وجبة العشاء، جلسا الطفلان يشاهدان بعض أفلام الكرتون التي غالباً ما تتضمن بطل خارق أو طفل ذكي أو رياضي بارع او أميرة جميلة او فارسة رقيقة، فهم يفرحون كثيراً بتلك الأفلام فهي رسوم متحركة جميلة تلمس قلبهم بأحداثها وبمغامرتها وتجعلهم مشدودين لها حلقة بعد حلقه، فهما يعتادا على مشاهدة التلفاز بكثرة، وأحياناً الطفلة سارة تحمل بحب دميتها المصنوعة من القطن والقماش في إحدى غرف البيت فهي من الألعاب المحببة لها، وأحياناً ما ينشب شجار بين الطفلين فارس و سارة ويأخذ الشجار أحياناً منحني تصاعدياً ويصعب إيقافه بعض الأحيان خاصة ان فارس يتعلق ببعض الأشياء ويستحيل اخذها منه لأنه دائماً يبدأ بالصراخ الشديد والغضب ولحل تلك المشكلة تبدأ سارة بالانسحاب من المواجهة حتى يبدأ اللعب بشكل هادئ.

- ها. قد حان وقت النوم يا أولاد.

- اتركيني يا أمي ألعب لم أنتهي من اللعب.

تنادي عليهما الأم في صراخ حاد فارس. سارة.

- حاضر يا أمي.

- سوف اقرأ لكما حكاية جميلة قبل النوم.

وذهبا الطفلان إلى غرفة نومهما بعد التجول يميناً ويساراً في المنزل.

- اغسل يدك يا فارس فهذا يجعلك تشعر بالراحة في نومك.

- حاضر يا أمي.

- ساعديني يا أمي.

- هيا تخيلا انكما تنامان في مكان واسع سماءه صافية، فيه أشجار وأنهار وزهور جميله وهواء منعش.

كان يا مكان هناك شاب كان مع مجموعة من المسافرين، وسمع من أحاديثهم عن امرأة ساحرة شهيرة في المدينة التي كانوا في طريقهم إليها، فنزل ضيفا عند صديقة لعائلته، فذكرت له أيضا عن هذه الساحرة وحذرته منها ومن سحرها، فازداد حبا في معرفة ماذا تفعل هذه الساحرة، فاتفق مع الخادمة أن تعينه على معرفة سر الساحرة.

في الليل هاجمه ثلاثة لصوص ولم يكن له مفر من مصارعتهم، وتمكن منهم فقضى عليهم جميعهم، وقبض عليه بجريمة القتل، وفي المحكمة، عندما أحضرت الجثث لإثبات الجريمة، تبين أنه لم يكن هناك جثث بل كانت ثلاث قرب ماء مملوءة هواء. وأطلق سراح الشاب لعدم حدوث جريمة القتل أساساً، على الرغم من أنه هو القاتل. وأدرك أن الساحرة علمت بوجوده ورغبت في التحرش به، من هنا ازدادت رغبته في معرفة أعمال هذه الساحرة، وساعدته الخادمة على الوصول إلى بيت الساحرة ورأى بنفسه كيف أن الساحرة دهنت نفسها بدهان تحولت بعده إلى بومة، وطارت أمام عينه إلى السماء وهو يشاهدها وازداد حب الاستطلاع عنده ورغب في تجربة الدهان بنفسه، وطلب من الخادمة أن تسمح له بأن تأتيه بالوعاء ليدهن نفسه به، واستجابت الخادمة لطلبه وأعطته علبة الدهان؟ أخطأت الخادمة في إحضار العلبة الخاصة بالطيور، وأعطته الدهان الذي حوله إلى حمار، فقد تحول هذا الإنسان بشكله إلى حمار، ولكن عقله بقي عقل إنسان مفكر. ووعدته الخادمة بأنها ستحضر له الدواء المضاد وهو عشب الورد والذي سيعيده إلى وضعه الإنساني، وطلبت منه أن يبقى في

الإسطبل حتى تحضر له المطلوب، وهنا يأتي اللصوص ويسرقونه مع بقية الخيل وتبدأ رحلة المشاكل.

وفي رحلته الأولى مع اللصوص، يكون شاهداً على عملية اختطاف إحدى الفتيات والتي يبدأ في حبها، وكان يعاملها معاملة خاصة قدرتها له، ولكن حياته بقيت معروفة بأنه حمار، ويقوم بأعمال الحمار، فهو يتمنى أن يحمل الحبيبة إلى أي مكان، ولكن أصحاب الإسطبل يفضلون عمله على رحى طحن الحب. أو حمل الحطب أو نقل الأمتعة وكانت مشكلته الكبيرة هي في الأكل فهو لا يأكل أكل الحمير، ليبقى فكره فكر إنسان. فكانت هذه هي الرابطة التي تربطه ببني جنسه الأصلي، ومنها أيضا ارتفع حب أصحابه له، لأنه حمار صاحب ذوق، فهو لا يأكل الأعشاب ولكنه يأكل الخبر ولذيذ الطعام، فعلموا أنه حيوان نادر فعلموه بعض الألعاب فأجادها، وجعلوه يقوم برقصات وألعاب على المسار.. وتمكن من الهرب ليصل إلى الشاطئ، وغسل نفسه سبع مرات وطلب أن يتحرر من شكله الحيواني.. وهنا وصل موكب عظيم مقدس يحمل أعشاب الورد، فقفز إليها وأكل منها، وعاد إلى هيئة الأولى كإنسان.

*****

الفصل الثالث

حياة جديد

مر أسبوعين وبعد أن تحسنت الدكتورة هند صحياً، ذهبت الي عملها في حدود الثامنة صباحاً، وفي الساحة العريضة لوقوف السيارات السياحية بالقرب من المستشفى كانت هناك سيارتان، إحداهما مستعدة للحركة، حين وصلت إلى الساحة ونظرت للسيارة الأولى كأنها رأت شبح زوجها الغائب عوني من جانب أحد النوافذ، وفي اللحظة التي نظرت هي إلى جهته بدأت السيارة بالتحرك. شعر بالغيظ حينما صعدت على درج المستشفى.

*****

بعد أقل من نصف الساعة تحركت الدكتورة هند من مكان عملها وذهبت الي الساحة مرة أخري ونظرت الي السيارات ظناً منها أنها قد تراه مرة أخري، وحينما وصلت إلى مكان السيارات اتجهت أيضاً الي موقف السيارات العلوي الذي بُني على ارتفاع صغير بجوار المستشفى، والتي بدأت بالصعود إليه. ما أن وصلت إلى هناك حتى التقت بأصحاب السيارات وهم يصطفون جانباً. وبالطبع لم يكن زوجها عوني بينهم، وكأنها تمنّت النفس بلقائه مرت أخري. هناك فتشت

عنه ولم تجده فأحست بغضب يجتاحها وتعكّر مزاجها ولم تستمتع بعملها هذا اليوم.

*****

وفي اليوم التالي دخلت الدكتورة هند المستشفى صباحاً وعلى وجهها ترتسم علامات اللهفة أنها قد تري نفس السيارة التي كان بها ما يشبه زوجها الغائب عوني. كانت صالة المستشفى مزدحمة بمن يترددون عليها. هناك الكثير من المرضي. بل وصل سمعها كلمات عن أمراض وكأنها لم تعرفها. كانت صديقتها الدكتورة غادة قد جلس إلى سرير أحد المرضي ومعها صديقتها الطبيبة الصغيرة السن الشقراء الدكتورة ناني. فتشت الدكتورة هند بنظرها في أرجاء الغرف عنها وعن مرافقتها أيضاً فلم تجدهما. اتجهت الي مكتبها فتناولت هي فطورها بدون شهية وببطء شديد لتمد من وقت الفطور عسى أن تأتي اليها صديقتها الدكتورة غادة.

*****

مرّ كل هذا الوقت وهي في عملها وولم تلتقي بصديقتها الدكتورة غادة الا في الظهيرة، وكعادتهم في أوقات الراحة يجلسون في أحد المكاتب يثرثرون. انتهت الدكتورة هند أيضاً من عملها، فالبقاء لها بدون ان تبدأ عملها تراه محرجاً جداً

بالنسبة لها. فهي كل يوم لم تترك أية غرفة في المستشفى لم تذهب اليها لمتابعة حالات مرضاها.

قبل انتهاء ساعات العمل جاءها هاتف أن تخرج من المستشفى وأن تتجه الي موقف السيارات، وعندما صارت خارجةً من المستشفى، فجأة أحست بالصدمة، إذ واجهت السيارة ذاتها وهي تتحرك وفيها شخص يشبه زوجها عوني ولكنه هذه المرة مع مرافقته.

أحست الدكتورة هند بالخنقة من نفسها ومن تصرفاتها التي لم تحصد منها سوى الخيبة، وأخذت تلوم نفسها. لماذا لم ينتظر لدقائق أخرى؟ الآن صارت عودته إلى مستحيلة! أحست بالغضب اتجاه الزوج الجني الغائب المجهول. فلماذا لم يأت قبل فترة ليطمئن علي؟ ما واساها في تلك اللحظات كأنها لاحظت ظلالاً من الخيبة ارتسمت على وجهها، وكأنها استاءت من تحركه بالسيرة مسرعاً.

*****

عادت هي نحو بهو المستشفى مرة أخري فلديها ساعات من العمل لم تنتهي بعد. دخلت الي غرفتها وجلست على الكرسي، مؤملةً النفس، وبينما هي جالسةً جاءت صديقتها الدكتورة غادة فرحةً ومشرقةً وقالت بحيوية:

- الساعة الثالثة عصراً سيكون هناك محاضرة عامة لأحد الأساتذة المميزين في مصر، من كلية طب القصر العيني، سوف يأتي لزيارة المستشفى والقاء محاضرة عن أسباب ارتفاع الصوديوم في الدم. هل ستأتي معي؟ ستكون محاضرة ممتعة. ننتظر الدكتورة ناني ونذهب سوياً.

- إيه. الدكتورة ناني؟ تلك الدكتورة الشقراء التي كانت دائماً معك؟

- نعم. الطبيبة الجديدة أيضاً، والتي كانت معي البارحة. وكانت معي قبل قليل وأنا أمر علي بعض غرف المرضي.

نظرت إليها الدكتورة هند بود متناسيةً ما هي فيه وسألتها بمرح:

- وهل صارت صديقتك بهذه السهولة؟

ابتسمت الدكتورة غادة وقال بمرح:

- وهل أنا مثلك. أرتجف في علاقتي مع زملائي بالعمل، أنك غريبةً جداً يا هند.

سألت الدكتورة هند بلهفة.

- ماذا فعلت؟

- هيا. هيا. لنذهب معاً.

- سأذهب معكما بلا شك.

*****

وقبل بداية المحاضرة جلسوا في قاعة المستشفى، جلست الدكتورة هند للحظات مستكشفةً المكان فهي لأول مرة تنتظر لسماع محاضرة في مؤتمر بالمستشفى. كانت الأجواء لطيفة وهادئة وكأن عرضاً مسرحياً سوف يبدأ. الطاولات موزعة بشكل يحفظ خصوصية الأطباء وكل العاملين بالمستشفى، والأجواء ليست بالمعتمة لكن الإنارة خافتة. واستمعوا الي حكاية أو حكايتين عن بعض الزملاء الذين عملوا معهم من قبل في ذات المكان ولكنهم لا يتدخلون في شئونهم الشخصية وبعدها ساد صمت لفترة وجيزة.

في هذه الأثناء التحق بهم بعض الزملاء من الأطباء في مختلف التخصصات الطبية، ثم جاء الدكتور فتحي زوج الدكتورة غادة برفقة زميلة أخري هي الدكتورة **مروة،** فرحبوا بهم، ولكن كما يبدو أن الدكتورة **غادة** استاءت من

حضورها برفقة زوجها، لذا قالت لزوجها، وكأنما تريد إنهاء الجلسة:

- لقد بدأت الشمس تميل للغروب، ويبدو أن المحاضر اليوم سوف يتأخر. لنذهب الآن، لقد شعرت بالملل.

قالت الدكتورة هند لها بدهشة:

- لننتظر قليلاً يا دكتورة غادة، من يراك قبل قليل لا يعتقد أنك قد تملين من الحضور. هل هناك شيء ما؟

- أقصد أن الوقت تأخر. أنا أحب مهنتي هذه كثيراً ولكن..

- تأخر؟ تقصد ين قد تأخر البروفسير وحيد؟

- نعم. لقد تأخر ولا نعرف متي يحضر، وأنا كنت أخطط اليوم لزيارة أمي.

شعر الدكتور فتحي بالحرج، لكنه قال:

- أوه. ماذا بك يا غادة؟

صمت للحظات. وارتسمت علامات التفكير على وجهه لثواني. ثم قال:

- مع أنني أعتبرك مستمعةً جيدةً ومتابعةً للنشاط العلمي والثقافي بشكل عام، لكني مع الأسف أتعجب من موقفك هذا اليوم.

- للأسف. لقد شعرت بالملل.

فقالت هند باستغراب:

- لا أدري بالضبط. ولا أدري ماذا أقول لك دكتورة غادة. ماذا حدث لك، لقد تم منعي من الذهاب وطلبتي أن أحضر معك وشعرت بالحماسة في عينيك لذلك قررت الحضور معك.

*****

بدأت المحاضرة وبعد كلمات الترحيب التقليدية. كان المتحدث هو الطبيب المصري العالمي بروفسير وحيد مراد، تحدث عن الأساليب العلمية الحديثة في علاج أمراض القلب وأنواعها وطرق الوقاية منها. كانت محاضرة ممتعة وعميقة، وكان المحاضر يتحدث عن ارتفاع ضغط الدم وعلاقته بأمراض الاكتئاب والأمراض النفسية، وعلاقته بالجهاز المناعي في الجسم.

عند استراحة المحاضرة وعلى المائدة جلس الجميع وبعض الأطباء الزملاء في المستشفى. في الجلسة الثانية بعد استراحة المحاضرة شعرت الدكتورة هند بفرحة غامضة. لأن المحاضرة تدور على موضوع تخصصها في درجة الماجستير. إذ كانت المحاضرة بعد الاستراحة تتحدث عن الأساليب الجديدة في علاج مريض الذبحة أو القصور في عضلة القلب بمستشفيات الجامعات المصرية. بعد انتهاء هذه المحاضرة التي أثارت الجميع بغزارة معلوماتها، تقدمتُ هند من البرفسور وحيد بصحبة زملائها وعرفوه بأنفسهم فرحب بهم جداً. حاولوا دعوته على العشاء فاعتذر لهم بأدب جم، وبعد أن تركهم فكرت الدكتورة هند للحظات بهذه الكفاءات المصرية والتي لابد أن تستفيد منهم البلد الكثير، في الوقت الذي يستمع العالم كله إليهم لغزارة معارفهم وتميز تجربتهم.

كان الدكتور فتحي مستمتعاً بالنقاش معهم، بل إن حديث زوجته في أول الأمر عن الملل أيقظ في نفسه الفضول لمعرفة سبب شعورها بالملل فجأة، خاصة وهو يعرف تحمسها للجلسات العلمية، ثم دعاهم للانتقال من مكانهم والتوجه إلى طاولة قريبة، فاتجهوا إليها وجلسوا حولها. وبادر الدكتور فتحي مكرراً سؤاله لزوجته:

- لماذا شعرتي بالملل فجأة، هل كان هناك شيئاً ما؟

- لا. لا شيء.

انتبه الدكتور فتحي الي وجود الدكتورة هند ونظر إليها مستفسراً عن سبب غيابها عن مهنتها وتركها للعمل لمدة طويلة كهذه.

- لماذا لم تمارسين الطب دكتورة هند لأكثر من عامين؟ ما هو السبب؟

- لا شيء، طلب مني زوجي أن أستقيل من عملي سابقاً.

ارتبك الدكتور فتحي في جلوسه قبل أن يطرح سؤاله ولكنه كان مضطرا للسؤال.

- هل زوجك يعمل طبيباً دكتورة هند؟

- لا.

- ما هو عمله؟

- كان يعمل مهندساً في شركة هندسية وأصبح واحدًا من أهم العاملين بها.

- رائع.

- أتمنى رؤيته ان شاء الله.

- لا أدري ماذا أقول. إنك تثير موضوعاً مؤلماً لي.

- لماذا؟

- لأنه غائب عني ولا أعرف له مكان.

- كيف هذا؟!

في تلك اللحظة أجابت الدكتورة غادة زوجها بدلاً عنها ومشاركةً في الحديث، وقالت له:

- لقد مرت الدكتورة هند بظروف صحية سيئةً جداً، وفجأة أختفي ولا تعرف أين هو الآن؟

انتظرت الدكتورة هند أن توضح له أكثر. لقد أحست بانجذاب شديد نحوه. انتبهت لإحساسها هذا منذ أول لقاء بينهما في المستشفى. وشعرت الآن أن هناك من يهتم بها.

توجه إليها الدكتور فتحي بكل حواسه، وقال لها:

- لأول مرة أسمع عنك هذا، أعتذر لك عن سؤالي هذا ولكن إذا كان لك الرغبة في ان تفصحي أكثر لا تخفي. نحن زملاءك ونريد أن نطمئن عليك، كل منا له ظروف مختلفة.

تستطيعي أن تتحدثي معنا بحرية. وأمان. زوجتي الدكتورة غادة تحبك وتشعر أن من واجبها أن تخفف عنك.

شعرت هند وكأن حملاً ثقيلاً انزاح عن كاهلها لهذا الإيضاح، فقالت بهدوء:

- حكايتي أنني أشعر بازدواجية دائماً في حياتي ولا أعرف هل ما أنا فيه حقيقة أم خيال. كان زوجي المهندس عوني انسان غامضاً على الرغم من أنه كان متحرراً مع الآخرين وأنا كنت مترددة مع نفسي أحياناً في حياتي معه.

ساد الصمتُ عليهم للحظات وكأنهم مسَوا شيئا خطيراً أو اقتربَوا من أفكار ما، وحينما استمر الصمت أكثر، سألتها الدكتورة غادة:

- وأين هو الآن؟

- عن أي شيء كانت أفكاره؟ أقصد ما هي حكايته؟

كانت الدكتورة هند مترددةً بالحديث عن تفاصيل حياتها وعن زوجها الجني الغائب هذا، ولأنها كانت أيضا على يقين أنه لا يمكن أن يصدقها أحد. وأنها تحاور زملاء غير قارئين ومتابعين للعالم الخفي، فقالت متشجعةً:

- كان زوجي مهندساً ولكنني فجئت أنه انسان غريباً وكأنه يعيش في عالم آخر، أقصد عالم مختلف.

ارتبكت الدكتورة غادة للحظة، ثم عقبت:

- مع الأسف لم أقرأ ولا أسمع شيئاً عن أناساً يعيشون في عالم آخر من قبل دكتورة هند. فكما يبدو أنك عانيت كثيراً، وأنت انسانة حساسة جداً، لكن لماذا تعتقدين أنه كان عالم آخر. أذكر أنك ذكرتي من قبل انه أختفي، كيف؟

فأكدت هي قائلةً:

- نعم. اختفي! ولا أعرف اين هو الآن؟

- تقصدين أنه ذهب إلي عالمه الآخر. أليس كذلك؟ هي. هي. هي.

- هي. هي. هي.

- أعتذر لك دكتورة هند. أنا لم أقصد السخرية مما تقوليه، ولكن ما تقوليه حقاً غريباً. أتمنى عودته لك سالماً ان شاء الله.

وهنا سأل الدكتور فتحي وكأنه يريد المشاركة أكثر في النقاش وحتى لا تغضب هند من ضحكاتهم، وليؤكد لها أنه أيضا موجود وأنه مثقف ولديه اهتمام بما تقول.

- ولماذا تعتقدين أنه يعيش في عالم آخر؟ قد يكون سافر الي أي بلد أخري مثلاً.

أحست الدكتورة غادة بعدم بالارتياح قليلاً من مشاركة زوجها لهما وابتعاد الحديث عن الطب والمحاضرة، فقالت بحماس:

- دعك من هذا الحديث الآن دكتوره هند.

ابتسمت الدكتورة هند من طريقة كلامها التي لم يستطع زوجها التعليق عليها، لكنها قالت بمرح مصطنع:

- هذا كلام صحيح. هذا أفضل.

فقالت الدكتورة ناني وكأنها تريد أن تعرف شيئاً عن اهتماماتها:

- دكتورة هند. هل لي بسؤال فضولي؟

قالت هي برحابة صدر.

- تفضلي.

- ما هي قراءتك المفضلة؟

- أوه. لديّ عدد من الكتب المفضلين عندي؟

ابتسم لها الدكتور فتحي وقال:

- مثلاً.

دب الحماس في أعماق الدكتورة هند إذ وجدت السؤال فرصة لكي تتحدث عن عالمها. فقال:

- أنا أفضل مثلاً: كتاب تاريخ موجز للزمن للكاتب العالمي ستيفن هوكنغ. واقرأ الكتب الطبية، والكتب النفسية والاجتماعية أحياناً، وأقرأ بعض كتب العلاج بالأعشاب، وكتب الطب الصيني الشعبي، وكتب الطب الحديث، وكتب وأبحاث كليات الطب وما يتعلق بالصحة الجسدية والعقلية والاجتماعية.

شعرت الدكتورة هند بأن ثمة نقاط ضوء بدأت تتقد في المسافة بين زملاءها، فقالت بمودة:

هذه سلسلة من الكتب، ولو سألتك يا دكتورة ناني من هو الأقرب في اهتمامات قراءتك أومن بين الكتاب؟

- لا أدري. كلهم مبدعون.

ساد الصمت بينهم للحظات. أحسَّت الدكتورة هند أنها قطعت شوطاً نفسيا بعيداً عن حياتها المؤلمة السابقة. وتوغلت إلى مساحات كبيرة في عملها والعلاقة الروحية بين زملائها. لذا

أرادت أن تقوم بالخطوة المماثلة، فسألت الدكتور فتحي دون أن تعير الاهتمام لزوجته وصديقتها الدكتورة غادة:

- وأنتِ يا دكتور فتحي. أي الكتّاب مقرب إليك أو المفضل لديك؟

ارتبك الدكتور فتحي وقال:

- أنا أختلف عنكم. أنا قارئ للعلوم الطبية فقط.

ابتسمت الدكتورة هند لإجابته الذكية، لكنها أصرتّ على معرفة جوابه فقالت:

ومع ذلك من هو كاتبك المفضل أو كتبك المفضلة؟

- لدي عدد من الكتاب ربما أكثر مما لديكم. أنا أحب الأعمال الجيدة ولكن أكثرهم دائماً أجده في الطب، وأحياناً أحب فصلاً في كتاب محددة فأهتم بالبحث عنه.

انتبهت الدكتورة مروة إلى أن وجودها قطع سلاسة وتلقائية الجلسة التي كانت حديثها عن القراءات، فقامت قائلةً للجميع:

- اسمحوا لي. سأراكم غدا. تشرفت بمعرفتك دكتورة هند.

- أهلا وسهلا لنا الشرف.

قال الدكتور فتحي باحترام شديد، وبدأ الارتياح على وجه زوجته الدكتورة غادة، ثم التفت وقال لها مبتسماً:

- لقد قرأت إعلاناً عن انعقاد مؤتمر للأطباء فقط الأسبوع القادم. هل لديكم معلومة بهذا؟

- نعم. لقد دعتنا هنا إحدى الجامعة الأمريكية بالاتفاق مع المستشفى إلى هذا المؤتمر.

نظرت الدكتورة غادة مستفهمة إلى زوجها الدكتور فتحي، مستغربةً سؤاله، وأدركت أنه يريد أن ينتقل بالحوار عن قصد من الحديث عن الكتب والقراءة إلى الطب والمؤتمرات العلمية.

كانت الدكتورة هند منجذبة برغبة في أن تتحدث معه فسألته:

- وعن أي شيء يهتم به المؤتمر القادم دكتور فتحي؟

- عن تشخيص أمراض الكبد وكيفية استخدام التصوير الهندسي بالرنين المغناطيسي للكبد.

فسألت الدكتورة هند باهتمام وفضول حقيقي:

- وما هو التصوير الهندسي هذا؟

- هو أحد اختبارات التصوير الحديثة MRE.

أحس الدكتور فتحي بأنها فرصة أخرى أمامه ليكشف عن معارفه أمام الدكتورة هند، فقال:

- التصوير الهندسي بالرنين المغناطيسي هو الفحص الغير جراحي المتقدم الذي يمكن من خلاله رصْدَ أي تصلب أو تشنج في الكبد. قد تُستخدَم بعض الفحوصات الأخرى، كالتصوير المقطعي المحوسب، والموجات فوق الصوتية (الألتراساوند).

كانت الدكتورة هند تستمع بانتباه واستمتاع للدكتور فتحي وهو يشرح لهم عن التقنية المتقدمة هذه في الطب.

*****

كان الظلام قد خيم في أنحاء المدينة، خارج المستشفى، وبدأت تظهر النجوم بشكل خفيف تمهيدا لظهور الليل الطويل. كانت أضواء المدينة ترقص على ألوان الأشجار والزهور، وأضواء المدينة على النيل تبدو مثل نجوم على الأفق. كانت تلك الأمسية بداية لحياة جديدة للدكتورة هند.

عادت الدكتورة هند الي بيتها ن وأبدت لأخيها لعزام بعض الاعتذارات عن تأخيرها اليوم في العمل وأوضحت له أنه كان هناك أحد العلماء يلقي محاضرةً اليوم في مقر العمل

بالمستشفى لذلك تأخرنا كثيراً. توجهت الي غرفتها. كانت غرفتها هي المكان الآمن الوحيد الذي تستطيع أن تفكر فيه بصفاء لعدة أيام، لم تكن خائفة بعد، ولكن الذي كان يرهقها هو التفكير في أنها ربما أصبحت خائفة من أن تبحث مرة أخري عن تفسيرات لما حدث لها سابقاً، أو أنها تعطي اهتماما أكثر للأشياء العادية التي تجري في البيت. ذلك لأن الصدمة التي تعرضت لها سابقاً أرهقت حواسها.

الفصل الرابع

ليل مظلم

وبعد انقضاء الأيام في بيت والدها، تأكدت الدكتورة هند من عدم وجود طيف أو اشباح قد تطاردها فيما بعد، ولكنها دائماً ما تتذكر أن ما تعرضت له لا يمكن أن يكون أوهاماً. وفي يوم الجمعة الثاني من شهر فبراير، وقد كان صباحه ممطراً ولم تستطيع الذهاب الي المجمع التجاري لشراء أغراضها، واتفقت مع السيدة ابتسام زوجة اخيها أن يذهبوا سوياً في المساء إذا توقف المطر، وفي المساء هيأت هند نفسها ليذهبوا الي المجمع التجاري وعند نزولها على السلم تذكرت حقيبتها التي تركتها في صالة الشقة وقت تناول القهوة، فذهبت لإحضارها، كانت خطوة واحدة داخل الشقة فيها الكفاية، ولكنها فجأة وجدت حقيبتها داخل غرفة نومها في أحد المقاعد بالقرب من النافذة الكبيرة المطلة على حديقة البيت والتي كانت مغلقة. وفجأة رأت شخصاً هو كأنه شبح زوجها عوني يقف خارج النافذة ويطل مباشرة الي الداخل وتعرفت عليه في الحال ونادت عليه:

- عوني. عوني.

كان هو شبح لزوجه الغائب عوني علي الرغم من أنه لم تكن صورته أوضح بالنسبة لها. عكس ما حد لها حينما رأته في موقف السيارة وهو داخل أحد السيارات وقبل أن ينطلق مسرعاً. ولكنه كان أكثر قرباً منها. جعلها تكتم أنفاسها وأصابها ببرودة، كان وجهه ملتصقاً بالزجاج ونظر اليها وشعرت أنه لم يغيب عنها منذ أعوام وكأنها تراه دائماً ومنذ فترة قصيرة. وحدث شيء هذه المرة لم يحدث من قبل؟ وهو أن عينيه ابتعدت عنها للحظة قليلة، واخذتا تتطلعان في أنحاء الغرفة، وكأنه يبحث عن شخص آخرو كـأنه لم يحضر من أجلها. كانت لمعرفة هذا أثر غريب. فهي دائماً ترغب في البحث عنه، لذلك نتج لديها إحساس بالشجاعة فاندفعت خارجة من الغرفة الي الصالة الي الخارج. ولفت حول ناصية البيت حتى وصلت في مواجهة نافذة غرفة الطعام التي هي في الطابق الأرضي مباشرةً من الخارج، لكنه كان قد اختفي، توقفت هند ولكنها لم تشعر بنوع من الارتياح نتيجة لذلك. ثم انتظرت لتعطيه فرصة للظهور مرة ثانية.

كان الممر والحديقة المجاورة والفناء الخلفي للبيت، كلها خالية وكانت هناك أعشاب طويلة وأشجار ضخمة، لكنها كانت على يقين بأنه لا يختفي بداخلها فهو إما أن يكون موجوداً معها في البيت او غير موجود ولكنه الآن غير

موجود إذا لم تستطع هند رؤيته، وقفت حيث كان هو واقفاً، واتجهت ناحية النافذة وضغطت وجهها على الزجاج كما فعل الشبح، في نفس اللحظ دخلت السيدة ابتسام الي غرفة الطعام من صالة الشقة التي بالدور الأرضي. رأت هند كما رأت هند شبح زوجها عوني توقفت كما توقفت هند. وتسبب لها في صدمة أكثر من القدر الذي حدث لهند. ابيض لونها وفعلت نفس الحركة التي فعلتها هند ثم اندفعت خارج الغرفة. وكانت هند نعرف أن لابد أن تلتف وتأتي لها الي الخارج، بينما كانت هند واقفةً انتظرت لتسألها لماذا ارتعبت وأبيض لونها؟

كانت أنفسها متقطعة عندما وصلت الي عبر الناصية وقالت:

- ما الأمر؟

لم تقل هند شيئاً حتى أصبحت الي جوارها فسألتها:

- كيف يبدوا منظري؟

- يبدوا مرعباً. فلونك أبيض مثل ستائر النافذة.

كان لابد أن تقول لها هند الآن، لم تعد تستطيع الاحتفاظ بالسر هذه المرة:

- ابتسام، معذرة، أشعر بأنني لا أستطيع الذهاب الآن.

- ماذا حدث، لقد حضرت الي بالطبع لنذهب الي المجمع التجاري، لكن لماذا لا تستطيعي الذهاب الآن؟ هل حدث شيء؟!

- نعم. سأحكي لك عنه. هل بدي منظري غريباً؟

- من خلال النافذة؟

- نعم.

- مرعب! مرعب جداً!

- فعلاً. لقد كنت مرتعبةً جداً.

وأوضحت لها زوجت أخيها السيدة ابتسام أنها لا تريد أن تبدوا خائفة. فأمسكت بيدها وكانت على استعداد تام لمشاركتها في أزمتها حينذاك. وقالت لها هند:

- لقد ابيض لونك عندما رأيتني خلال النافذة، اما ما رايته أنا في حياتي أسوء من ذلك.

فسألتها: ماذا رأيت؟

- رأيت شبح زوجي عوني.

- زوجك عوني، الغائب!!

- نعم.

- ليست لدي أي فكرة عنه.

- نعم. أنه شبح زوجي عوني الذي لم أعرف حتى الآن أحقاً هو أنه ما تزوجته كان شبحاً أم أنه انسي واختفي من حياتي فجأة؟

- هل رأيته هنا من قبل؟

- نعم. مرات عديدة، كان مرة في الغرفة ولم يحدثني، وكان مرة في الحديقة ولم يحدثني أيضاً وانصرف سريعاً. وقد رأيت بجوار عملي وكان يقود أحد السيارات ومرة أخري كان جالساً في سيارة بموقف سيارات المستشفى ومعه مرافقة له ويومها انصرف مسرعاً.

- هل تعنين أنه هنا. أقصد معنا في البيت؟

- نعم. رأيته هنا.

- أنه هو حقاً؟

- نعم. أنا متأكدة من ذلك.

- لكنك لم تخبريني من قبل. ولم تخبري عزام.

- كلا. كان لدي مبرراتي. وأنت تعرفي ما حدث لي من قبل حينما عشت معه في الإسكندرية.

اتسعت عيناها بشكل كبير وقالت:

- أنا لم أتبين أي شيء.

ثم قالت ببساطة:

- هل أنت متأكدة من أنك لم تتخيلي ذلك؟

- متأكدة تماماً.

- وأنك رأيته مرة من قبل؟

- رايته خلف زجاج النافذة الآن.

- ماذا كان يفعل؟

- كان واقفاً هناك ولا أكثر.

- لم يتحدث اليك بشيء؟

نعم. وأنا لا اعرف لماذا اذن لم يتحدث الي؟

تعجبت ابتسام فسالتها مرة أخري: هل كان هو حقاً؟

- أوه... نعم. أنه هو، فليساعدني الله.

تطلعت السيدة ابتسام حولها مرة اخري وتطلعت عبر الحديقة والفناء ثم التفتت الي هند وقالت:

- كان من المفروض أن نكون في المجمع التجاري الآن.

- انا آسفة. لن أستطيع الذهاب معك!

- ولم لا؟ ربما يكون في ذلك مصلحة لك؟

- لا. لن يكون ذلك في مصلحتنا.

وتطلعت السيدة ابتسام الي غرفة أولادها وقالت:

- حسناً. وأنا لا أستطيع ترك أولادي الآن. أنا خائفة من هذا.

لم يذهبا الي المجمع التجاري هذا المساء. وبدلاً من ذلك ذهبا الي غرفة الأولاد، وبعدها ذهبت هند الي شقتها وجلست في غرفتها تفكر فيما هي فيه ومهما حكت لا يصدقها أي أحد، فهم لم يروا أي شيء، ولا حتى شبح زائف ولا يعتقد أحد أن هناك أحد من الممكن أن يعيش معها من العالم الآخر، حتى لو كان في البيت. ولا مفر من أن شبح زوجها عوني قد ظهر لها مرة أخري ولكنه لا يتحدث اليها مما يجعلها أيضا لا تعتقد أحياناً من وجوده معها حقيقياً. على الرغم من أنها لا تشك فيما تراه دائماً.

*****

في اليوم التالي، كانت الساعة قد تجاوزت الرابعة عصراً وكان يوم سبت، حينما رن جرس التليفون في غرفت الدكتورة هند فرفعة السماعة بمرح ظناً منها أن المتصل هي أختها وجدان كي تروي لها شيئا من مغامرات ابناءها معها ككل يوم، لكنها فوجئت بصوت آخر.

- تحياتي دكتورة هند. أنا الدكتورة غادة.

قامت هند من المقعد التي كانت تجلس عليه قبالة التلفزيون واقفاً، وخلال ذلك ضغطت على زر في سماعة الهاتف بحيث صار الصوت مسموعاً، وفي الوقت نفسه كتمت صوت التلفزيون من خلال جهاز التحكم، وقالت بلطف محاولةً اظهار فرحتها لسماع صوتها.

- أهلا حبيبتي دكتورة غادة. أرجو أنني لم أكن قد ضايقتكم بالحديث أول أمس خلال المحاضرة.

- أبدًا يا حبيبتي. كان حديثك ممتعاً جداً ومفيداً.

- أشكرك يا حبيبتي.

- بودي أن اخبرك بأنني اتصلت بك لأنني أردت زيارتك اليوم سوف يكون معي زوجي والأولاد.

لم تصدق هند ما سمعته، لذا كبتت فرحتها وقال:

- تشرّفني زيارتك بالتأكيد. أي ساعة أنتظركم فيها؟

- لحظة من فضلك حبيبتي.

وبعد لحظات.

- ان شاء الله علي الساعة الثامنة مساءً. إذا لم يضايقك ذلك. هل لديك الوقت أم أنت متعبه؟ إذا كان الأمر كذلك نؤجل الزيارة إلى لقاء آخر.

لم تصدق الدكتورة هند ما سمعته، فقالت بلهفة وبنشاط:

- سأنتظركم ان شاء الله.

- ان شاء الله.

- في أمان الله.

مع السلامة يا حبيبتي.

حينما وضعت الدكتورة هند سماعة الهاتف لم تصدق نفسها وشعرت بشيء ما خاصة حينما قالت لها صديقتها أن زوجها الدكتور فتحي سوف يأتي معها. دخلت إلى الحمام بسرعة

ومشطت شعرها وبدلت ثيابها وخرجت مسرعة لشراء بعض الحلوة لضيافتهم فهي لأول مرة تطلب منها زيارتها.

*****

وفي حدود الساعة السابعة والنصف حينما خرجت الدكتورة غادة من بيتها ومعها زوجها وابناءها ذهبت الي أحد المجمعات التجارية والمجاورة لبيتها حيث تنشر المحلات التجارية الفاخرة هناك، اتجهوا الي المصعد مباشرة ثم الي أحد المحلات بالطابق الثاني لشراء شيئاً من الشكولاتة واتجهوا الي المصعد مباشرة مرة ثانية ثم إلى صالة الخروج. لم يكن هناك الكثير من الزوار في المجمع. ثمة رجل وامرأة في إحدى زوايا صالة المطاعم يتهامسان، وموظفو المطاعم والمحلات وبعض موظفو الاستقبال قرب باب المجمع الكبيرة.

*****

كانت الدكتورة هند جالسةً في البيت منتظرةً قدومهم. سمعت باب البيت الخارجي يُفتح. فجأة رآها الدكتور فتحي قادمةً وقد كانت في ملابس أنيقة مختلفة غير التي كانت تلبسها أول أمس في المستشفى أو تعتاد هي على لبسها. وقفت في استقبالهم مرحبةً داعيةً إياهم للدخول من باب الحديقة

الواسعة، ثم أشارت للأولاد ليسرعوا إليها. ما أن دخلوا الي شقتها فسألتهم عما يشتهون شربه. طلب الدكتور فتحي كوباً من الماء أول الأمر بينما لم تطلب الدكتورة غادة شيئاً وقالت لها أن تنتظر حتى يستريحوا.

كان ثمة شيء من الارتباك في بداية الجلسة، فقد كان الدكتور فتحي منبهراً بحضورها القريب منه لاسيما وهي تجلس قبالته. حينما جلسا الدكتور فتحي وزوجته على الأريكة توسط المقعد بينهما الأولاد. كانت الدكتورة هند في زينتها وعطرها الزكي الذي كان يصل إليهم. وكأن الدكتور فتحي أخذ لثواني كي يبحث في ذاكرته عن اسمه. إلا أن الدكتورة غادة لم تنتبه لذلك أول الأمر. بادرت الدكتورة غادة معتذرةً وهي تقول لهند بلطف وكانت مبتسمةً:

- نعتذر، لقد أقلقناك في هذه الساعة من الليل، أردنا الاطمئنان عليك.

- لا تعتذر يا غادة. فأنا شخصياً أتمنى زيارتكم كل يوم، فيا للسعادة بكم.

ونظرت الدكتور هند لصديقتها الدكتورة غادة بحنان وواصلت الحديث.

- أشكرك يا غادة.

- إنك تبدين الليلة رائعة الحسن أكثر من أي يوم مضي يا هند، يا تري ما السبب؟

شعرت هند بالخجل وبالارتباك من كلامها عن أناقتها هذه الليلة. وأصرت على أن تقدم لهم شيئاً من ضيافتها. ولم يستطيع أحد أن يرفض لها طلباً، لذا قامت متجهة الي المطبخ وأحضرت صحناً من الفاكهة وآخر من الحلوة.

جلست هند على الكرسي قبالتهم، وقد شعرت بموجات الفرح تجتاحها بسبب هذه الزيارة، بينما عادة وسألتهم مستكملةً أصول الضيافة:

- ماذا تفضلوا أن تشربوا عصير فراولة أم عصير برتقال؟

- عصير فراولة للأولاد. وأنا وفتحي عصير برتقال.

- ان الليلة جميلة بكم.

- شكراً يا هند. أنت الأجمل، ان منزلكم رائع وجميل.

- ان هذا من باب مجاملتك لا أكثر، أنت الأجمل يا غادة، ولا أتصور أن يعجب الدكتور فتحي بإمرة وأنت بجانبه وجمالك يملأ عينيه.

- من ذوقك يا حبيبتي.

- سامع.

نظر اليها زوجها الدكتور فتحي قائلاً:

- تتصورين أن تستهويني امرأة غيرك؟

- بالطبع. لا.

ابتسم الدكتور فتحي وهو يقول:

- وهل يوجد ما تنافسني فيك يا دكتورة غادة. بلا شك.

- أرجو ذلك.

في تلك اللحظة تطلع الدكتور فتحي الي وجه هند فرأها منصرفة عنه بالتحدث مع الطفلان ومداعبتهما.

شعرت هند بسعادة غامرة تسري في أنحاء روحها، وخلال ثوان سألت نفسها:

- هل أنا سعيدة لرؤيتهم حقاً أم أنني أريد أن أري الدكتور فتحي؟

ولكونها كانت تتحقق دائما من أفكارها ومشاعرها في أعماقها فقد أجابت على هذا السؤال في أعماقها، إنها تريد

رؤيته هو، وهي متأكدة من نفسها ومن مشاعرها على الرغم من أنها لا تحبه، هي فقط معجبة به وبشخصيته.

ذهبت هند الي المطبخ وجاءت ببعض المشروبات ووضعتها على الطاولة وجلست. هي بانتظار أن تعرف سبب زياتهم، على الرغم من أن غادة قالت لها أنهم جاءوا للاطمئنان عليها فهذا هو السبب الظاهر الذي على الأقل جاءوا من أجله.

فتحت علبة الشكولاتة التي أمامها وضيفت الجميع منها. صمتت لحظة. كانوا ينتظرون أن تتكلم معهم. أخذ الدكتور فتحي رشفة من العصير بينما ظلت الدكتورة غادة صامتةً ومتأملةً لبس الدكتورة هند وأناقتها في هذا اليوم فقد انتبهت الآن وتعجبت قليلاً.

وبعد انتهار الجلسة خرجوا من شقة هند واتجهوا الي سيارتهم التي قد اصطفت داخل حديقة البيت، جلس الدكتور فتحي لقيادة سيارته وفي الطريق ظل يفكر في الدكتورة هند وفي أحوالها ثم همس في نفسه:

- لا، لا، أنا لا أستطيع أن أطلب الزواج منها الآن، صحيح أنها كانت متزوجه ولكن أين هو زوجها، ام هو الآن يكون قد طلقها؟ ولكن حينما أخبرتني بغيابه عنها قالت إنها لا تعرف أين هو ولا تعرف هل هي متزوجة أم مطلقة؟ أشعر بأنها

تبحث عن حياة جديدة ولكنها لا تريد أن تتزوج قبل أن تعرف حقيقة زوجها، لذا فلا يجب أن أطلب الزواج منها الآن. سأطلب الزواج منها في الوقت المناسب، حينما تجد مخرجاً لها من زوجها السابق الغامض هذا، ثم أتزوجها. فأنا لا أستطيع أن أقدم على هذه الخطوة الآن. وها هي الأيام سوف تمر. وسيظهر حبها لي بمرور الوقت. ولكن ما العمل؟ ما العمل إذن؟ أعتقد أنه ليس أمامها سوى الذهاب الي المحكمة لتطلب الخلع منه، نعم ليس أمامها سوى المحكمة، لكن متي؟

فجأة، انتبهت الدكتورة غادة الي ان زوجها، كان شارد الذهن وهو يقود السيارة، فرفعت صوتها متسائلةً:

- ها. يا دكتور.

- ها. لا شيء.

- نحن هنا، بماذا شرد ذهنك، أنت لم تتكلم بكلمة واحدة منذ أن خرجنا من بيت هند.

- تقول لا شيء؟ وكأنك تفكر في أمر ما! شاركني معك، من الممكن أن اساعدك.

- حقيقي لا شيء.

نظرت اليه ثم قالت له بصوت مكتوم:

- هل انتبهت الي بيت هند. حتى الآن أنا مصدوم من طبيعته، أنه بيت غريب، ولأول مرة أري هند غريبة أيضاً.

صمت الدكتور فتحي قليلاً وكأن زوجته تتحدث عن شيء بعيد جداً يحاول تذكره، وعن شخص آخر لا يمت إليه بأية صلة. سألها بعد أن طال صمته:

- مصدومة؟ وهي غريبة. لماذا؟

- من الواجب عليها أن تكون متسترة أكثر وفي ثياب مناسب لاستقبالنا، لأول مرة أراها تهتم بهذه الأزياء الغريبة.

نظر اليها الدكتور فتحي وهو يقود سيارته، وسأل بقلق الزوج المخطئ؟

- شيء عادي يا غادة، ما الذي حصل؟

نظرت الية وتعجبت من إجابته وتساؤله وقالت:

- لا شيء. كنت احترمها كثيراً ولكنها كانت غريبة اليوم!

- لا غريب إلا الشيطان.

- إذن، ربما هي الشيطان.

فقال الدكتور فتحي بنفاذ صبر ودود:

- يا دكتورة غادة. هي صديقتك، فكيف تقولين عنها هذا؟

- أشعر حقاً أنها غريبة. هل تتوقع أن هذه التي كانت الأسبوع الماضي تتحدث معنا عن كل العقول والمواهب العلمية في الطب وغيره.

- أنا لا أري أية مشكلة في شيئاً ما.

- تعرف انها قالت لي من قبل أنها كانت متبوعة من العالم الآخر.

- هي. هي. هي، عالم آخر!

- نعم. ما الغريب في ذلك، أنا أشعر أنها تتصرف أحياناً كالمجنونة.

- ما الذي جعلك تشعرين بهذا؟

- قالت لي أنها مرت بكل بيوت الدجالين والمشعوذين كثيراً.

نظر إليها زوجها مستفسراً وفي عينيه فضول فقال:

- ماذا يعني ذلك؟ أقصد ماذا فعلت؟

- فعلت كل الذي يمر في ذهنك من أمور الدجالين والسحرة.

- معقول؟

- هذا ما قالته لي ولأنها وثقت بي ولكني الآن أتعجب من تصرفاتها الغير واضحة!

صمت الدكتور فتحي للحظات مستغرباً. ثم قال:

- ثم ماذا. لماذا أنت مهمومة ومنزعجة من هذا؟

شعرت الدكتور غادة بالإحراج. فلِمَ هي غاضبة من ذلك حقاً. ارتبكت للحظات ثم قالت وكأنها تبرر لنفسها:

- لا. إنما تعجبت حينما رأيتها في استقبالنا بزيها الغير المحتشم.

ابتسم زوجها وقال بمرح:

- لا تبالغي يا حبيبتي. هل تريدها أن تأتي لاستقبالنا وهي في جلباب البيت؟ طبعاً تأتي بلباس مزين لأنها تستقبل زملائها في العمل.

- أعرف. لا أقصد ذلك، لكني لا أتصور أنها هند نفسها التي أراها كل يوم في العمل.

نظر إليها زوجها مستغرباً ثم قال بنبرة مرحة مشوبة بسخرية:

- ولماذا لا يمكنك ذلك؟

- يمكنك أن تتصورين ذلك. ما المشكلة؟

- وكأني لا أعرفها!

- ظننتك تعرفيها جيداً.

- أبداً.

- هيا. هيا. أنا جائع، وأعتقد أنكم جائعون، لذا سوف أقف هنا أمام هذا المطعم وندخل من بابه.

وقفت السيارة أمام باب المطعم ونزلوا جميعاً، أمسكت الدكتورة غادة بيد أولادها متجهين الي الداخل وخلفهم الدكتور فتحي.

*****

مر أسبوعين، وحينما عادت الدكتورة هند مساءاً من عملها وكانت متأخرةً قبل الغروب بدقائق، تذكرة أنها تحتاج شراء بعض الأدوية الضرورية، نزلت من على درج البيت مسرعةً لشراء الأدوية، لاحظ أن السماء بدت مثل سحابة كبيرة من غيوم بيضاء كثيفة، لكن لم يرد في ذهنها قط أن السماء ستنشق عن برق ورعد وشلالات من المياه التي

ستعطل الحياة في المدينة لساعات. فما أن خرجت من البيت بعد الغروب ولم تصل بعد منتصف الطريق إلى الصيدلية المجاورة لبيتها حتى اهتزت المدينة بالرعد والبرق الذي شق قشرة السماء التي بدت لها والتي نظرت إلى السماء عند لحظة ولادة البرق وكأن الأرض وما عليها ليست إلا بحيرة كبيرة، وما وراء الشق الذي أحدثه البرق الا رعباً تشعر به، أحست بأن هناك عوالم هائلة. وكانت السماء تهطل بالمطر مدراراً وكأن شلالات علوية بدأت تنهمر على المدينة الصغيرة.

فكرت أن تنتظر وتخرج ساعة أخري حتى يهدأ المطر، لكنها وجدت بأنه يجب أن تذهب إلى الصيدلية الآن فهي متعبةً جداً. لاسيما وأن وضعها الصحي بشكل عام سيء جداً وتشعر بارتفاع في ضغط الدم فلا تجد أمامها الا الخروج. لكنها انتبهت بأن المسافة المتبقية إلى الصيدلية المجاورة تكاد تكون عارية من أي غطاء أو سقوف فالصيدلية تقع في شارع رئيسي بناياته تصطف بشكل متسلسل وبالتالي عليها العودة إلى البيت وأخذت المظلة معها.

حينما وصلت هند هذه المرة إلى البيت أيضا. وبينما كانت إحدى يديها تفتش في حقيبتها الجلدية عن المفتاح كانت يدها

الأخرى تمسك بمقبض الباب، وبحركة لا إرادية دفعت الباب فوجدته مفتوحاً. استغربت ذلك. دخلت الشقة بهدوء، وقفت مرعوبةً عند الصالة الكبيرة، نظرت إلى غرفة النوم المقابلة واتجهت اليها لتبحث عن المظلة، دخلت الي غرفة الاستقبال ومنها إلى الغرف الأخرى فلم تجدها أيضا سألت نفسها: أين المظلة لقد تركتها هنا؟ أين هي يا تُرى؟

خرج من الغرفة الصغيرة واتجه إلى الحمام فوجدتها معلقة على حاملة الملابس داخله. وقفت للحظات، أحست بتدفق الدم يصعد إلى رأسها، وبضغط قوي على صدغها، وبدون تفكير خرجت من الشقة خائفةً، ثم انتظرت لحظة وعادة الي الداخل وقف أمام النافذة ولا تعرف من أين هبط عليها الهدوء المفاجئ، وكأنما سكبوا عليه سطلاً من الماء المثلج. كانت تحس وكأنها عاشت هذه اللحظات في زمان ما. وكانت تتوقع بيقين ما ستراه بشكل غامض.

وفجأة رأت مرة أخري شبح زوجها عوني يقف خارج النافذة ويطل مباشرة الي الداخل وتعرفت عليه في الحال ونادت عليه:

- عوني. عوني.

فكان هو شبح زوجها عوني وكانت صورته أوضح أكثر هذه المرة بالنسبة لها. عكس ما حد لها حينما رأته في نفس المكان المرة السابقة وهو يقف خلف النافذة الزجاجية وقبل أن ينطلق مسرعاً. ولكنه كان أكثر قرباً منها. جعلها تكتم أنفاسها وأصابها ببرودة، كان وجهه ملتصقاً بالزجاج أكثر ونظر اليها وشعرت أنها تريد أن تتحدث اليه وكأنها تريد أن تراه دائما. وحدث شيء هذه المرة لم يحدث من قبل؟ وهو أن عينيه لم تبتعد عنها بل ظل يحدق بها كثيراً للحظات متكررة وكـأنه لم يحضر هذه المرة عبثاً، وكأنه يريد أن يقول لها شيئاً ما، وهمست في نفسها: لقد جاء من أجلى.

وكان هذا له الأثر الغريب في نفسها، على الرغم من أنها ترغب في الحديث اليه بل والبحث عنه، لذلك نتج لديها إحساس بالشجاعة أيضاً فاندفعت خارجة من الغرفة الي الصالة ومنها الي الخارج. ولفت حول ناصية البيت حتى وصلت في مواجهة نافذة غرفة الطعام التي هي في الطابق الأرضي مباشرةً من الخارج، لكنه كان قد اختفي، توقفت ولكنها لم تشعر بنوع من الارتياح نتيجة لذلك. ثم انتظرت لتعطيه فرصة للظهور مرة ثانية ولكنه لم يظهر.

كان الممر والحديقة المجاورة والفناء الخلفي للبيت كلها خالية وكانت الأمطار تتساقط على الأشجار الضخمة بها، لكنها دائماً كانت على يقين بأنه لا يختفي بداخلها فهو موجوداً معها في البيت. خرجت من البيت خائفةً ومتجهةً الي الصيدلية لشراء دوائها.

*****

الغريب أنه لم يبد على الدكتورة هند أية شيئاً استثنائياً بالرفض من إشارات الدكتور فتحي لها بالإعجاب رغم حبها لصديقتها الدكتورة غادة والتي استقبلتها استقبالاً جيداً منذ استلامها للعمل في المستشفى. لم يبدوا على تفكيرها أية تغيرات واضحة عن شعورها. صحيح أن مزاجها متقلب أحياناً، فتراها خلال الساعة الواحدة تتقلب ما بين الحزن والفرح والوجد الديني والشرود الذهني، لكن ما كان يعذبها هو أن زوجها عوني هجرها أو غاب عنها، والتي حتى الآن لم تعرف هو حقاً شبحه الذي يأتيها والذي أحبها وأحبته بل وتزوجته. إذ أنه خلال ما يقارب الثلاث أشهر الماضية وهي تشعر أنه يحاول أن يقترب منها مرة أخري ولكنه لا يتحدث اليها.

فكرت هند أن تفاتح أخاها بالبحث عنه؟ لكن مجرد التفكير في ذلك يصيبها بالرعب. لم تجد أي تبرير كي تذهب جديةً للبحث عنه. ودائما ما تقول في نفسها: ماذا لو أن الدكتور فتحي أراد الزواج مني؟ فهل يجوز أن أتزوجه أم أنني لا أستطيع لأنني لازلت متزوجة من عوني الذي هجرني الآن ولم أعرف هل هو موجود أم لا؟ ولو طلب هو الزواج منها ثم وافقت تكون هي خائنه لزوجها ولصديقتها؟

فكّرت مع نفسها مسترجعةً مسيرة حياتها معه، فهوكان يتعامل معها بعنف أحياناً، ويسبها ويعاملها باحتقار أحياناً، ربما لم يوليها الاهتمام الكافي، على الرغم من أنه كان يمتدحها أحياناً ويقول لها كلاماً ناعماً وجميلاً؟ نعم، هذا صحيح، فهو يقم بذلك، وكانا على انسجام في بعض الوقت. لكنها كانت غير مرتاحة معه من هذه الناحية النفسية خاصة في آخر أيامها معه، ولم تبدي هذا لأحد أو تقول شيئاً، ولم يبدوا عليها في تلك الأثناء إنها غير سعيدة معه، ربما كان يسحر لها في أول الأمر فلا تستطيع الفرار منه والابتعاد عنه؟ ربما.

لكن الذي كان أشد إيلاما وعذابا بالنسبة لها هي شكها بأن زوجها كان خائناً لها وقد تزوج عليها الكثير من النساء

خاصةً صديقتها صفاء والتي كانت يوماً ما عاطلةً عن العمل وهي التي سعت لمساعدتها بالعمل مع زوجها والنهاية أنها تزوجته. ولم تكن تعرف حينها بأنها امرأة ماكرةً.

إنها تعترف بأنه كان قاسياً جداً معها في الأيام الأخيرة وكان يسيء لها كثيراً، ولكنه لم يبخل عليها بالمال. صحيح أنها كانت تشعر بأن بينهما هوة فكرية وثقافية أحياناً، لكنه كان يشاركها بعض الأمور المهمة والخاصة أحياناً أخري، فقد كان يسألها عن رأيها في مشروعاته الهندسية. لكنه كان صامتاً معظم الوقت. في أعماقها حزناً لا ينتهي، وهو الآن غائب عنها ولم تعرف ماذا تفعل؟ لا تستقر هي على حال.

كانت الدكتورة هند في وضع نفسي سيء جداً ومتعبةً ومحبطةً، فشكها شبه اليقيني أن زوجتها هذا كان جني ومن عالم آخر جعلها في حالة سيئة جداً. وكثيراً ما كانت تجلس ساعات تفكر مع نفسها عن السبب الذي دفعها الي حبه والي الزواج منه بل إلى المغامرة أحياناً في العيش معه طيلة

السنوات السابقة، هي كانت غير متدينة، صحيح أنها ترتدي الحجاب وتقوم بالفرائض، لكنها من جانب آخر غير مخلصة لله، ولم تشأ أن تقول مع نفسها بأنها خائنة لعالمها، عالم الإنس. فهل هي المسؤولة عن ذلك؟

*****

الفصل الخامس

وثيقة الشيطان

وفي صباح يوم من الأيام، مرَّت الدكتورة هند من جانب الدكتورة غادة عند أول الردهة المجاورة لباب المستشفى، فلم تعرها اهتماماً وكأنها لا تعرفها. لم تتعجب هند من ذلك أول الأمر والتي لحظتها فسرت الأمر مع نفسها بأنها ربما لم ترها. وبعد أن انتبهت الدكتورة هند لتجاهل صديقتها الدكتورة غادة لها، لذا وجدت نفسها تتجه إليها ولتتحدث اليها، لكنها تجاهلتها بالكامل وانصرفت، وكأنها لا تعرفها حقاً، وهذا ما بث القلق فيها فألحّت بملاحقتها مسرعةً حتى انتبه لهما الزملاء فالتفتوا إليهما ولم يكن من الدكتورة غادة إلا أن همست لهم بشيء لم يسمعه سواهم. ممن بث تياراً من الغضب الخفي في نفس الدكتورة هند.

سألت الدكتورة هند نفسها غاضبة: لماذا تتجاهلني؟ ألم تكن صديقتي يوم ما؟ ألم تتحدث معي كل يوم منذ أن بدأت العمل هنا! ألم أبكي أمامها كالطفلة يوم ما حينما حكيت لها بعض مشاكلي السابقة فتهدئني هي؟ لماذا تتصرف وكأنها لا تعرفني؟ لماذا تتعامل معي وكأنني مجنونه تخاف مني؟ هل أنا رخيصة أمامها إلى هذا الحد؟ لكن لا غرابة فقد تكون

هناك بعض الظروف تمر هي بها وتكون هي السبب، أو ان هناك سوء فهم فسوف أوضح لها وأجعلها تتفهم الأمر؟ أو انها لاحظت إعجاب زوجها لي لذلك غارت وغضبت عندما وجدتني متجهة اليها؟ وحتى لو كان هذا هو السبب فما ذنبي أنا؟

*****

وبعد مرور ساعتين من العمل وبطريقة بها لطف شديد اعتذرت الدكتورة هند من زميلاتها وذهبت باحثةً عن الدكتورة غادة لتستفسر عن سبب تجاهلها لها في هذا اليوم. حين خرجت الدكتورة هند إلى بهو المستشفى كانت متأكدة أنها ستراها هناك، إلا أن خيبتها كانت كبيرة حينما لم تجدها بل وجدت زميلتها الدكتورة ناني مع صديقتها الدكتورة مروة جالسين في زاوية يتحدثان وأمامهما فنجانان من القهوة. كانت عازمة على رؤية الدكتورة غادة ومحادثتها والاستفسار منها عن تصرفها معها، فتقدمت منهما وسلمت بتوتر، وسألت الدكتورة ناني عنها، فقالت لها إنها في مكتبها الآن، ثم دعتها للجلوس معهما لشرب القهوة، لكنها لم تنتظر أن تكمل جملتها إذ استدارت متوجهة إلى مكتبها.

*****

وقفت الدكتورة هند أمام باب المكتب للحظات. وحزمت أمرها وطرقت الباب، كانت الدكتورة غادة جالسةً على كرسي قرب مكتبها وحينما سمعت طرقات على الباب، سمحت لها بالدخول وكان وجهها ينم عن غضب وخجل وارتباك.

ظلت لحظات تنظر إليها فقالت لها:

- هل سابقي واقفة عند الباب؟

فقالت بغضب مكتوم:

- عفواً. تفضلي.

دخلت إلى المكتب وجلست على الكرسي الذي وُضع مقابلاً لمكتبها. وكانت هي جالسةً على الكرسي الآخر المقابل لها حول نفس المكتب وكأنها تنتظر منها أن تبرر قدومها لها في هذا التوقيت وتركها لعملها فجأة. نظرت إليها فقالت لها:

- هل يمكنك أن تطلبي لنا قهوة؟

لم تعلق هي شيئا وإنما قامت نحو التليفون. أخذت سماعة الهاتف وطلبت قهوة من قسم الخدمات في المستشفى ثم رجعت جالسةً إلى كرسيها. نظرت إليها متفحصةً وكأنها تستشف مدى استعدادها لما ستقوله. ظلت هي صامتةً تنتظر،

وقالت مع نفسها إنها بالتأكيد لم تأتي إلى مكتبي لشرب القهوة.

مرت لحظات صمت مشحونة بتوتر غامض. ثم بدأت هند تتحدث بهدوء وبثقة، وبدأ صوتها في أول كلماتها مرتعشاً، لكنها سرعان ما انتبهت لرعشة صوتها فسيطرت على نفسها وصوتها، قائلةً:

- قبل كل شيء أود أن أقول إن تصرفك اليوم معي لا يمكن أن يُفسر إلّا كتصرفٍ غريب ولم أتوقعه منك خاصة.

صُدمت الدكتورة غادة أول وهلة من كلماتها وكأنها لم تفعل شيء وأرادت أن تقاطعها مستفسراً عما تقصده لكنها سكت وواصل تأملها لها وانتظرت منها أن تواصل حديثها. سكتت هي للحظات ثم واصلت:

- أنا لستُ مجنونة يا غادة وإذا كنت تحدثتُ معك من قبل في أمور شخصية فهذا لأنك صديقتي الوحيدة هنا ولم أتحدث بشيء مع أحد غيرك. فأنا لست مجنونة تتنقل من دجال إلى دجال، ومن مشعوذ إلى مشعوذ، وإذا ما كنتُ قد تحدثت معك من قبل، فلأني شعرت بأنك حقاً صديقتي الوحيدة هنا، ولا أتحدث مع أحد إلّا لمن أحس بأنها حقاً تستحق أن تكون صديقتي، وهذا الاستحقاق لا يأتي من عقليتها أو مكانتها،

وإنما لقناعتي الشخصية فيها، بشخصيتها وأسلوبها معي ومع الآخرين، بل ورقيها في التعامل أيضاً مع الآخرين! وحينما قبلتُ أن تكوني صديقتي، فهذا لا يعني إنني أحكي ذلك لأي أحد، ومع كل من هب ودب، لذا تعجبت وأعتبر أن تعاملك معي اليوم وتجاهلك بهذه الطريقة المهينة هو احتقار لي لأني أعرف تفكير البعض فهم ينظرون الي كل من يذهب الي دجال أو ساحر كأنه ممسوس من شيطان أو جني.

شعرت الدكتورة غادة بالغضب وبسبب نبرة الغضب التي تتحدث بها الدكتورة هند.، فهي تعرف انها حقاً تجاهلتها، ثم سألتها بهدوء شديد:

- ما الذي فعلته أو صدر مني كي تعتبريه احتقاراً؟

نظرت إليها بدهشة حينما لاحظت هدوئها وعدم انفعالها من كلامها الواضح، فقالت بنبرة أكثر هدوءً:

- إنك تجاهلتني بالكامل اليوم حينما دخلت من باب المستشفى صباحاً، كلما نظرت إليك لأسلم عليك ولأحييك تعجبت بأنك تشيحي بنظرك عني وعندما لحقت بك، أسرعت الخطي ولا أعرف ما هو السبب؟ هل أسأت اليك في شيء؟ هل صدر مني شيئاً لم أنتبه له.

- متى كان ذلك كله؟

فقالت بتحدٍ:

عند باب المستشفى صباحاً وحينما مررت من بهو المستشفى!

- أتدرين لماذا تصرفت هكذا؟

- لماذا؟

- لأني شعرت بأنك غريبة حقاً، وهناك شيء غامض ولا تريدين أن تتحدثي معي بوضوح وكأن هناك سر غامض.

- وهذا يجعلك تتجاهليني وكأنني غير موجودة، ومضيتي دون اهتمام، أكان لك الحق في ذلك؟

- هل أخطأت فيما أقوله؟

- أكيد.

- لذلك تحدثت معي بنبرة الغضب هذه.

- ماذا تنتظرين مني بعد هذا؟ أنا حقاً غضبت منك.

- وللمرة الثانية أقولها لك ولا أخفيك، أنت حقاً شخصية غريبة الأطوار يا هند.

في تلك اللحظة طُرق الباب فأجابت الدكتورة غادة بالدخول. كانت عاملة بوفية المستشفى قد جاء بصينية فيها زجاجتان من الماء البار وكوبين فارغين وكوبين من القهوة، وضعت الصينية على الطاولة أمامهما. صبت الدكتورة غادة لها الماء في أحد الكوبين، وقدمت لها أيضاً القهوة وهي تنظرت إليها وكأنها تبحث في وجهها عن شيء مجهول، فانتبهت لها وسألتها:

- ما بك لماذا تنظري إليّ هكذا؟

- أريد أن أسألك شيئا.

-اسألي.

كانت تشعر الدكتورة غادة بأنها مذنبة في حقها حينما تجاهلتها وانطلقت مسرعةً، فهي فعلاً لم تمنحها الخصوصية والاهتمام حينما جاءت الي العمل صباح هذا اليوم، لكن هذا شيء طبيعي، فهي ايضاً تمر بظروف نفسية سيئة مما تراه في سلوك زوجها الدكتور فتحي وخاصة حينما كانوا في زيارتها، وهي حتى الآن لم تستوعب ذلك. لذلك وجدت الدكتورة هند لها هذا العذر أيضاً، وفهمت رد فعلها بتجاهلها. ولكن الدكتورة غادة شعرت بأنها اثقلت عليها في رد فعلها

خاصة بتجاهلها الشديد لها، لذلك أرادت أن تعوضها عن سوء الفهم الذي حصل منها.

كانت الدكتورة هند متلهفة لسماع سؤالها. وسمعتها تقول لها:

- قبل كل شيء أعرف أنك قد مررت بظرف غامضة جداً في حياتك. وهذا ما دفعني الآن لكي أسألك: من أنت؟ من أنت يا هند؟

نظرت إليها للحظة وكأنها تقرأ أفكارها، ثم ابتسمت وقالت بلطف:

- توقعت أن تسألين هذا السؤال يوم ما على الرغم من أنني قد حكيت لك الكثير من حياتي، ولكن أعذرني قبل أن أرد على سؤالك هذا، أريد منك اجابةً على سؤالي أولاً، كيف لك حتى الآن وقد مرت الشهور وأنا أعمل معك هنا وأنت لا تعرفيني؟ هل هناك شيء خاص تودين معرفته عني؟

أعجبها الدكتورة غادة ردّها الذكي في أنها تطرح سؤالاً بسؤال على الرغم من نبرتها المترددة فقالت لها:

- ماذا. هل هي حرب بيننا؟

- لا، ولكن.....

نظرت إليها بمودة وقال مازحةً:

- إنك قاسية جداً تجاهي يا غادة. الحقيقة أنني أعرف أن كل صديق يُعبر عن شخصية صديقه، فإذا أردت معرفة تفاصيل شيء عني عليك أولاً أن تنظرين إلى نفسك. فأنت شريكة لي في عقلي أليس كذلك؟ كان يجب عليك أن تفهميني أكثر من نفسي. ألم تتذكرين أنك كنت تقولين لي من قبل أنني أشبهك كثيراً في الصفات والاتجاهات الفكرية وأن هذا ما جعلنا أصدقاء.

صمتَت الدكتورة غادة لحظة وكأنها استعادت سيرة صداقتهما التي أوجزتها الدكتورة هند بعدد من الكلمات، وقالت بهدوء وبتقدير واضح:

- اعتذر لك يا هند، ولكن اعذريني ما أردته، هو أنني أشعر بأن هناك شيئاً ما وراء عقليتك المضطربة هذه أحياناً!

صمتت هند للحظة، وكأنها كانت تستعيد سيرة حياتها في ثوان، وقالت بنبرة جادة مشوبة بيأس مبطن:

- تنحدر عائلتي من محافظة البحيرة. كدح أبي في العمل بشدة في شبابه. لقد اضني نفسه في العمل بحق حتى أنه لم يفكر في أي شيء بخلاف واجبة نحو عمله وأسرته. وتتجلي

طبيعة صلاح أبي الحقيقية في قصة زواجه من أمي. ولما كنت في الخامسة من عمري، ذهبنا الي القاهرة مع ابي فقد نقل تجارته بها، واشتري لنا بيت كبير أعيش فيه الآن مع أخي عزام. وكان من عادة أمي منذ أن عشنا هنا أن تقدم المساعدات للعائلات الفقيرة. ولما صرت في العاشرة من عمري كان العالم سراً كبيراً أردت أن أسبر غورة، أحب أخوتي منظر الأشياء، أما أنا فقد أردت أن أكتشف كيف تعمل الأشياء؟

صمتت هند فجأة، وشحب لونها، ونظرت في كوبها. ألهت نفسها بصب الماء في الكوب بالرغم من أنه لم يكن فارغاً. كانت تريد كسب الوقت. هل تقول ما عندها أم لا؟ أخيراً انبسطت أساريرها لكن نظرتها ظلت حزينة وكأن ألماً دفيناً كان يرقد في أعماقهما. رفعت رأسها ونظرت إليها وكأنها تريد أن تقرأ شيئا في وجهها، ثم قالت:

- المرأة التي تجلس أمامك والتي تقولي بأنها إنسانة غريبة وغامضة هي إنسانة محطمة من الداخل.

نظرت اليها الدكتورة غادة في صمت، وكأنها تريد أن تستوعب هذه السيرة الطويلة التي أوجزتها بعدد من الكلمات، وقال بهدوء وبتقدير واضح:

- إذنً، كنتُ محقة عندما سألت من أنت؟ وأكيد. أتفق معك بأن معظم مآسي البشر تأتي من سوء الفهم المتبادل. اعتذر عن سوء فهمي هذا لك يا هند.

- أنني أشعر بازدواجية أحياناً، وهذا ما يقلقني، فلا أنا بالطبيبة العاقلة، ولا أنا بالسيدة المضطربة كما يقول لي البعض أحياناً. بل أكثر من أن أكون مزدوجة وكأنني أعيش ثالوث مظلم. صحيح أعيش هنا في عالم الانس، لكن كأني لستُ منه، بل إن أصحابها أنفسهم لا ينظرون إليّ هكذا حتى لو عشت عمري كله بينهم، صحيح أني أعمل طبيبة وعشت بين أسرة كبيرة لي هنا، لكني أشعر بأنني إنسانة بلا جذور.

انتبهت الدكتورة غادة إلى طبيعة كلامها ووضوح أفكارها، فسألتها:

- هل أنت متبوعة حقاً من العالم الآخر، كما فهمت من قبل أم أنك تهتمين بالقراءة عن هذا العالم فحسب؟

- نعم، حدث لي شيئاً من قبل فقد تزوجت دون ان أدري بأحد أعوانهم.

نظرت اليها الدكتورة غادة في ذهول حينما سمعت اجاباتها الصريحة، ثم واصلت هي فقالت:

- لكن دعك من هذا كله. أخبرني عنك فقدت أثرت فضولي.

ابتسمت الدكتورة غادة وقال بدهشة:

- أنا أثرت فضولك! بماذا؟ بعقليتي الغريبة المضطربة كما تقولين؟

ارتبكت الدكتورة هند خجلاً، فهي تشير لكلامها أول ما دخلت الي مكتبها، وقالت:

- أنا أعتذر عن القسوة وعن تقديري الخاطئ في الحديث معك.

لاحظت الدكتورة غادة خجلها فأرادت أن تخفف عنها، فقالت مازحةً:

- ربما أنت محقة يا هند. أنا أحياناً لا أعرف نفسي جيداً، وغالباً أتسرع في أحكامي وعواطفي على الناس:

- لا يبدو لي ذلك.

- بلى.

- على كل حال ما حدث كان خيراً.

- هل عشت خارج القاهرة، أقصد في المحافظة التي نشأتي بها قبل قدومك الي القاهرة؟

- نعم. قلت لكمن قبل انني انتقلت مع أبي الي القاهرة وأنا بعمر الخامسة، ولكني لا أتذكر شيئاً الا القليل.

- هل عشت في مدينة أخري غير القاهرة؟

- نعم. لقد تزوجت وعشت أكثر من عامين بالإسكندرية.

- أعرف، اقصد في مدينة أخري، بلد أخري مثلاً؟

- لا. عشت سنوات دراستي الجامعية هنا في القاهرة. وعشت في بيت أبي، لكن لماذا تسألين؟

- لأنك تفكرين أحياناً بطريقة غير متحضرة!

صمتت الدكتورة هند لحظة، وقال لها بنبرة جادة وغاضبة:

- نحن أحفاد حضارات إنسانية مهمة، فكيف لي أن أفكر بطريقة غير متحضرة، تقصدين بأنني أنشغل أحياناً بالعالم الآخر؟ وأن هذا يدل على عدم تحضري.

- كل حضارة ولها حكايتها. وان هذا العالم الخفي لا نعلم عنه سوى الأساطير.

أحست الدكتورة غادة بالارتباك لأنها أدركت أنها ربما مسّت كرامتها، فقالت:

- لا أقصد ذلك، وإنما عقليتك، رؤيتك للأمور مختلفة عن أناس كثيرين ممن تقابلت معهم وأعرفهم.

فقالت لها بنبرة هادئة لكنها مشوبة بإصرار واضح:

- لا أعتقد ذلك. أنا إنسانة عاقله، ربما تقصدين أن الأمر له علاقة بالتربية وليس بالحضارة

- لا. ابداً.

صمتت الدكتورة غادة للحظة ثم واصلت:

- أنك لم تجيبي عن سؤالي. من أنت يا هند؟ لماذا أنت هكذا؟ لا أتصور أن طبيبة مثلك، لا يهما حياتها، تذهبي الي دجال. ثم تتزوجي رجل وتقولين إنه أحد أعوان الجن ثم تستائي منه وتحاولي استرداد كرامتك لأنه هجرك وغاب عنك؟ هذا غير طبيعي، ولا تفعله أي امرأة إلا إذا كانت تعاني اضطراب نفسي، أو قد تم معاملتها وإذلالها لمدة طويلة.

ارتبكت الدكتورة هند لكنها أخفت ارتباكها بالابتسام، وقالت مازحةً:

- أوه. دخلنا في علم النفس.

فواصلت الدكتورة غادة بنبرتها الجادة:

- نعم. ويمكننا أن نحلل كل الأمور وفهم طبيعة القلق والضغوط والاضطرابات وفق آلياته. لذلك نقترب من هذا العلم لنفهم طبيعة النفس البشرية أكثر، فنحن نحتاج لعلم يساعدنا وعلم النفس وخاصة علم النفس السريري هو هذا العلم.

- ليس دائماً.

- أتفق معك أنه ليس دائما، لكن في كثير من الأحيان.

صمتت الدكتورة غادة لثواني وقالت بنبرة جادة:

- يستطيع الإنسان أن يحلل ذاته إذا ما كان يمتلك وعياً ذاتياً لذاته.

- وإذا كان الوعي غير كافياً.

- كل منا يمتلك شفرة سحرية لمواجهة هذا الوعي.

- هذا صحيح. لكن ليس من السهل القيام بذلك أحياناً.

نظرت إليها الدكتورة هند للحظات وقالت لها بنبرة فيها احترام واضح:

- تقصدين أنني أمتلك ملكة سحرية من الممكن ان تساعدني على مواجهة الحقيقة!

- نعم.

- وأعتقد أنك قادرة على مواجهة ما أنت فيه.

- حقاً.

- بالطبع.

نظرت إليها الدكتورة هند بتفحص وهي تقرأ ما يدور في ذهنها، وسألتها بمودة:

- أتودين أن أحكي لك حكايتي؟

نظرت إليها الدكتورة غادة بارتباك وقالت وفي صوتها إحراج واضح:

- إذا كنت تودين ذلك. فأنت تعتبريني صديقتك الوحيدة، أم أنك تبحثين عن صديقة أخري تلقي أمامها حملك الثقيل هذا؟

- بالطبع. لا.

- أعتقد أنك تريدي أن تتحدثي معي. بل كنت أشعر بأنك تبحثين عن فرصة من قبل كي تحكي عما أنت فيه.

صمت الدكتورة هند لحظة، وقال بنبرة هادئة:

- أحب أخوتي الشعر والأشياء الجميلة، الأزهار وشروق الشمس والفراشات أما أنا أحببت العلوم والمفكرين، كنت فتاة رزينة دائمة التفكير. وأردت أن أتعلم كل شيء وأي شيء وقد استهوتني أسرار السماء والأرض الي ما لا نهاية فكان لا يشغلني شيء سوي العالم من حولي، كيف يسير؟ ولم نحن هنا؟ وكيف جئنا جميعاً الي هذا العالم؟ وما الذي يبعث الحياة في شيء ما؟ وقد أثار هذا اضطرابي، وهذا هو ما كان يحدث معي كثيراً. كانت أخوتي تهدئ من روعي. ولما كبرت تعمقت في القراءة أكثر فأكثر واذهلتني بعض الكتب لكن كلما قرأت أكثر ازداد انزعاجي، إذا لم يجب ولا عالم واحد على أسئلتي قط، ولم يخبرني ولا كتاب واحد بما أردت أن أعرف بالضبط. كانت الأفكار تتزاحم برأسي طوال الليل عادةً. وكانت عائلتي لطيفة فتغاضوا عن أمزجتي المتقلبة، وكنت أمضي أوقاتاً طويلة منكبةً على قراءة الكتب وخاصة الكتب القديمة التي تعلوها الأتربة.

صمتت الدكتورة هند للحظات وكأنها تستدرج ذكريات جديدة من خزين ذاكرتها لترويها. وبعد لحظات واصلت:

- وفي يوم من الأيام جلست في غرفتي ثم نظرت إلى مكتبتي التي كانت أمامي، فرأيت كتاباً وأردت قراءته فمددت يدي وأخذته. لأتصفحه وبدأت أتصفح الكتاب وبدأت بالقراءة في أول فصل به. انتقلت إلى فصل آخر فكان كتاباً غريباً يحمل اسم غريب (هاسوين) لمؤلف غريب ولا أحد يعرف عن حياته الشخصية شيئاً. الكتاب يبدوا كأنه كتاب سحر، وأنا أطالع، وبدأت أندمج، لمحت شيئاً غريباً في داخل الكتاب وثيقة قديمة صفراء لا تسر الناظر اليها، مددت يدي وبصعوبة وبدقة جراحية فتحتها كان الفضول قاتلاً، كان الفضول يغمرني، أنها وثيقة غريبة، وكتب عليها في بدايتها عبارات بلغة لا أعرفها، ربما هي سريالية، لغة لابد أنها من بلاد غريبة أو كأنها لغة قادمة من كوكب آخر، فهمست في نفسي: ما هذا؟ لابد أنها لأحد ووضعها هنا، لابد انني حينما اشتريت مجموعة الكتب هذه لم أنتبه الي هذا الكتاب، لابد أن الإرهاق هو السبب.

صمتت الدكتورة هند بينما كانت هي تتوقع أن تعلّق الدكتورة غادة بشيء على ما قالته فانتظرت لحظة، وحينما لم تقل شيئاً

واصلت حديثها بهدوء وبنبرة ألم وكأنها تسترجع ذاكرتها، فقالت:

- دققت بها فوجدت عبارة تقول: لا أستطيع أن أضر من أُحب، ولكن سحري وضرري على من يعرف سري، ولا تعتقدين أن سحري في هذه الوثيقة فقط. احتفظي بها وسوف ترين أشياء لا يمكن لأحد غيرك أن يراها. أنها مدخل مدينتي ، مدينة السحرة، وفجأة اختفي من يدي الكتاب في لمح البصر، وقد أُغشي علي في نفس الوقت، ووجدت نفسي كأني في كابوس مزعج اذ شعرت وكأني افتح غطاء صندوق وقد نظرت يميناً ويساراً لأتأكد من عدم وجود احد ينظر نحوي ثم تقدمت من الصندوق وفتحت الغطاء وقفزت علي الفور داخل الصندوق وشعرت انني أسقط في بئر سحيق وانني انزلق ومن اسفلي قطع من النار وكلما انزلقت اكثر كانت السرعة تزداد اكثر واكثر وأشعر بارتفاع حرارة النار مني اكثر واشتد المكان ظلمه ويزداد المكان ضيق حتي شعرت انه مع استمرار الانزلاق سوف يطبق المكان علي وبعد اكثر من دقيقة من الانزلاق داخل هذا البئر المظلم ، بدأ الهواء يتسرب الي أنفي مره اخري وبدأ شعاع الشمس يضرب وجهي وسقطت علي الأرض ونظرت بجواري نحو اليمين فوجدت ممر ضيق وأمامي حائط سد وطريق طويل نحو

اليسار وعلي اليمين حائط سد فقلت أين نسير، ثم فجأة استيقظت فوجدت نفسي ممددةً علي الأرض. وبدأت أشعر بألم شديد في رأسي عجز الطب عن شفائي منه فنصحتني زميلة لي ان أقوم بزيارة المعالجين الروحانيين. وبدأت رحلتي الغريبة هذه مرة أخري، ثم وجدت نفسي أسقط في ذلك العالم الذي بلا قاع. في رحلة مثيرة وطويلة ومتشابكة في عوالم العالم الخفي.

صمتت الدكتورة هند للحظات. وكان واضحاً أنها تعاني من سرد ذكرياتها. لكنها كانت مصرة على أن تكشف لها حكايتها الغامضة. ثم واصلت:

- ومرت الأيام وتزوجت اختي وجدان وتزوج أخي عزام ووجدت نفسي أعيش في كنف أبي وأمي المريضين، وأعمل على خدمتهما ورعايتهما.

ومنذ أكثر من ثلاث سنوات عندما حضر المهندس عوني ذات يوم الي بيتنا فهو صديق لأخي عزام، أُعجب بي وكنت حينها في آخر مراحل دراستي للماجستير وتبادلنا نظرات الاعجاب في صمت تام قرابة شهرين حتى انتهيت من دراستي للماجستير، وعلى الفور تحطمت الحواجز بعد خطبتي منه وبدأ يلقي على مسامعي بعض كلمات الغزل

والإطراء على جمالي ورقتي وخفة ظلي وعلى حسن حظه أن أكون أنا زوجته، وأكد لي أنه لا يجاملني حينما قال لي أنني جميلة و رقيقة وإنما يذكر الحقيقة ورغم أنني سمعت كثيراً مثل هذه الكلمات لكنها لم تكن بهذا القدر من البلاغة والإلقاء الصادق منه، لذلك هزت كلماته كياني من الأعماق ومع تكرار اللقاءات خلال مراحل خطبتي زاد انجذابي إليه حتى وقعت أسيرة في حبه.

واستمرت خطوبتنا أكثر من ستة أشهر. توفيت أمي وبعدها بشهر توفي ابي. وبعد مرور شهرين قال لي أخي يجب اتمام الزواج فأنت الآن وحيدة، أطرقتُ قليلاً ثم وافقت على إتمام ليلة الزفاف وتزوجت. على الرغم من تعثر زواجي كثيراً من قبل. وبدأت رحلتي معه الي الجحيم وخاصةً حينما تركنا القاهرة وذهبنا للعيش في مدينة الإسكندرية، وعرفت بعد ذلك أن الوثيقة التي وجدتها بالكتاب ما هي إلا وثيقة وعهد معه، إنها كانت وثيقة الشيطان.

*****

الفصل السادس

الغيرة القاتلة

كانت الدكتورة غادة كل صباح تمر على صديقتها الدكتورة هند لتشرب معها فنجاناً من القهوة قبل القيام بمسؤوليات العمل المكلفين بها في المستشفى، وقبل مجيئها إلى مكتبها الواسع في ذلك الصباح، حيث أن الدكتورة هند دائماً ما تطلب منها أن تمر صباحاً لتشرب القهوة معها. لم تكن تتردد الدكتورة غادة في أن تعبر عما تفكر فيه.

كانت الدكتورة هند بقدر الغموض الذي يحيط شخصيتها وماضيها وعالمها فهي أيضا واضحة في رؤيتها للأشياء وواثقة من نفسها ومن تصرفاتها، وربما هذه الثقة في جانب منها مستمدة من ثقتها بنفسها ومن الثقة التي يمنحها لها عملها كطبيبة، لذا لم تكن تتردد الدكتورة غادة في أن تسألها وتستعين برأيها في أعقد المسائل وأكثرها حساسية في حياتها.

قبل مجيء الدكتورة غادة إلى مكتب الدكتورة هند توجهت الي مكتبها، وحينما وصلت وجدت الدكتورة هند بكامل زينتها ولباسها. فهمت أنها بدأت تهتم بزينتها وربما هناك شيء ما جديد في حياتها.

جاء الي مكتب الدكتورة هند الدكتور فتحي باحثاً عن زوجته الدكتورة غادة علي ما يبدو ظاهراً، على الرغم من أنه تردد في الجلوس كثيراً ولعن نفسه على المجيء وهمس في نفسه: فمن غير اللائق أن أبقي هنا في مكتبها في وجود زوجتي. إلّا أن زوجته الدكتورة غادة طلبت منه أن يشرب معهما فنجاناً من القهوة. قبل الدعوة وجلس معهما مرتبكاً وسعيداً في الوقت نفسه، وجلس بالقرب من زوجته على الكرسي الجلدي، حيث اتصلت الدكتورة هند بعاملة البوفيه ليحضر له كوباً من القهوة، وجاءت العاملة بعد أن أحضرت القهوة وزجاجة صغيرة من الماء المفلترة. وقد وضعتها في صينية فضية وتركتها على إحدى الطاولات.

وحينما خرج الدكتور فتحي بعد جلسته معهما، نظرت الدكتورة غادة إلي الدكتورة هند نظرةً مليئةً بالود وسألتها سؤالا مباغتاً:

- دكتورة هند ما رأيك في زوجي؟

بُوغتت الدكتورة هند بهذا السؤال، لصراحتها ومباشرتها ووضوحها، فقالت بتردد:

- ماذا تقصدين؟

- قصدي واضح، ما رأيك أنت بزوجي الدكتور فتحي؟

ظلت الدكتورة هند مرتبكةً، محاولةً كسب الوقت لتحلل السؤال ودوافعه، ومفتشةً عن جواب دبلوماسية لهذا السؤال الملغوم، فسألت:

- من أي ناحية تقصدين؟

- من جميع النواحي، الشخصية والمهنية.

ظلت الدكتورة هند صامتةً للحظات. وكانت تصارع نفسها في أن تبدي رأيها الصريح أولاً، فقالت:

- وهل ترين أن رأيي مهم في زوجك؟

- يعني. أحب أن أعرف رأيك. رأيك يهمني. رأيك أنت بالذات.

نظرت إليها بتمعن وقالت بصوت متردد:

- بصراحة؟

ابتسمت الدكتورة غادة بحزن وقالت:

- ولماذا أسألك إذا، لكي أنتظر الإجابة الصريحة منك؟

- ألا يزعجك رأيي إذا لم يعجبك؟

- أبدا. لماذا أسأل إذا كنت أتوقع الإجابات التي تعجبني فقط؟

صمتت الدكتورة هند للحظات. ثم قالت:

- إن شخصية الدكتور فتحي شخصية طيبة وشخصية جذابة ولطيفة. وأنيق أناقة طاغية....

تنحنحت خجلاً ثم واصلت:

- أقصد أنه شخصية لطيفة، والتي لا يختلف حولها اثنان وأي شخص يرتاح لرؤيته كل الارتياح.

فوجئت الدكتورة غادة من صراحة الدكتورة هند فابتسمت لها كي تواصل حديثها، فاسترسلت:

- أحيانا أجد أن تعبير وجهه وبعض نظراته تكاد تكون واضحة، لأنها ليست مزيفة وحقيقية، ولا أعتقد أنه من هؤلاء الرجال الذين يكون لهم ثمة قناع يغطي وجههم الحقيقي.

كانت الدكتورة غادة تنظر إليها بدهشة. وتتعجب من كلامها الواضح عن زوجها والتي لم تتوقع هذا الايضاح منا. ثم واصلت الدكتورة هند تحليها فقالت:

- والغريب أن عينيه اللتين تسترعيان الانتباه لكل من ينظر إليه، تتركان انطباعا للناظر لوجهه بأنهما تخضعان لإرادته،

فحتى إذا ما أراد أن ينظر نظرة رقيقة فأن ثمة أشعة لا مرئية من الحنية والطيبة يمكن أن تصدر منهما. أعتقد أنه يتعذب، لأنه لا يرتاح أبداً من عملة، فحياته كلها عمل في عمل.

كانت الدكتورة غادة تنظر إليها بذهول أكثر. وتتعجب من كلامها الأكثر وضوحاً. وهذا ما شجعها إلى أن تكمل وتواصل تحليلها، فقالت:

- أعتقد إنه غيور جداً. لكنه انسان نبيل ومتواضع بشكل مثير للإعجاب، وأعتقد هذا في جوهره أيضاً. وليس إنسان أناني، وأعتقد أن الحياة بكل ما فيها من حب، ومشاعر، وصداقة، وجمال، بالنسبة إليه لا تتعدى كونها حياة بسيطة يعيشها، فهو لا يهدر شيئاً من وقته إلّا باعتبار ذلك ضمن حساب العمل. كل شيء لديه محسوب، حتى الابتسامات واللطف الذي يبديه للضيوف والأصدقاء ولك أيضا محسوب.

كلماتها الأخيرة صدمتها. ارتسمت الكآبة على وجهها شيئاً فشيئاً. انتبهت لها هند فسألت:

- أرجو ألا أكون قد تجاوزت حدودي في الكلام عن زوجك.

فقالت بهدوء وبصوت خافت حزين:

- أبداً. أنت تتحدث وكأنك تعرفينه أكثر مني. رؤيتك له بهذا الوضوح تجعلني أقلق عليه أحياناً.

استرخت أعماق الدكتورة هند لحظه، لكن الدكتورة غادة واصلت القول بسؤال آخر:

وماذا عني؟ كيف تراني انت؟

فوجئت الدكتورة هند وأحست بالارتباك والحرج، وسألت:

- أنت؟

- نعم أنا.

صمتت الدكتورة هند للحظات واسترسلت قائلةً:

- أنت صديقتي، فأنت صاحبة نفس حساسة جداً، رقيقة، ولكن أحياناً أشعر أن لديك مشاعر ثانوية غامضة بداخلك وأعتقد أنها ردة فعل لموقف ما، تجعلك تشعرين بالحزن، ولكن على الأرجح أنت تشعرين بالعديد من الأحاسيس كالوحدة، أو أنك غير مرئية، وغير مهمة، وبائسة. ولكن هي في أعماقك أنت. أنت غامضة أحياناً دكتورة غادة مثلي تماماً، ولكن لا أعتقد أنك معقدة. فأنت كريمة النفس ونبيلة القلب، لكنك تغارين على زوجك كثيراً أليس كذلك؟

- بلي. أنا زوجة، وكأي زوجة عربية لا أحب أنا يشاركني فيه أحد. هل في هذا شيء غريب؟

- بالطبع لا.

- أشعر أنك تسعين إلى الصفح عنه كثيراً. على الرغم من أنك لا تبدين ذلك أبداً، أليس كذلك؟

- بلي.

- أنني أجد في الصفح عنه حقاً له.

- بل تجدين فيه لذة مجهولة أحياناً. أنت حزينة جداً دكتورة غادة.

لم تستطع الدكتورة هند أن تسترسل إذ قاطعتها الدكتورة غادة قائلةً بارتباك وخجل:

-إنك تبالغين في إطرائي يا هند.

- أبداً. إن مقاطعتك لي هو دليل على سمات الشرف والاستقامة والتواضع لأني أثنيت عليك.

قاطعتها بخجل وود قائلةً:

- تقولين هذا لأنك صديقتي وتحبيني.

- أود أن أكون صديقتك حقاً يا غادة. أنت صديقتي الوحيدة. وموضع أسراري الآن وتعرفين كل قلقي ومخاوفي.

- بالتأكيد يا هند أنت صديقتي الوحيدة. على الذهاب الآن، شكراً على القهوة.

- عفواً.

- سأتصل بك علي تلفونك المحمول بعد الانتهاء من العمل.

- حسناً.

*****

وفي صباح أحد الأيام التي تشتعل بوهج الشمس المحرقة، غادر المهندس عزام البيت كعادة مصطحباً أولاده الي مدرستهما، وغادرت الدكتورة هند البيت متجهة الي عملها. وظلت السيدة ابتسام بمفرها بالبيت منشغلة بأعمال بيتها من طهي ونظافة للغرف، وكان بادئ اضطراب عليها اذ سمعت صوت يصدر من الطابق الأرضي، فتسمرت قدماها بالخوف والرعب ثم ما لبثت أن شاهدت رجلاً يترنح على حافة البيت وحدثها قلبها بأنه أحداً تعرفة، فأسرعت تعدو نحو النافذة، ولكن قبل أن تصل اليها لم تري أحداً.

*****

وفي ذات اليوم حينما أرسل الليل ستار ظلمته، ذهبوا الي فراشهم فتري ابتسام في منامها أن شبحاً يظهر ليلاً ويجري نحو زوجها عزام الذي كان هو يجري نحو امرأة، وقد سقطت على الأرض وكأن زوجها قد ركع الي جانبها وكأنها سمعت همهمة بين بينهم سرعان ما ارتفع الي نهايتها صوت المرأة الملقية على الأرض وهي تصيح:

- اهرب يا عزام.. اهرب قبل أن يقتلوك.. اهرب. اهرب.

واندفع في تلك اللحظة الشبح العملاق نحوه ورأته يهوي بقبضته المخيفة على صدره ثم يعقبها بضربات أخري وقع بعدها زوجها عزام فاقداً للوعي والحركة. وتري انها قد وثبت نحوه صارخةً، وإذ ظهر لها هذا الشبح من الظلام وفاجأها بوضع سكينة حادة في جنبها وقبضة اليد الأخرى على عنقها من خلفها وهو يقول:

- اغلقي فمك وعودي الي بيتك ولا تتكلمي بحرف. فهمتي؟ لا تنطقي وإلا ذبحت لك أولادك.

وشاهدت الشبح يحمل زوجها عزام علي كتفة ويسرع به الي الظلام الدامس وأدركت أن هذا الشبح لن يتردد في قتلها والقضاء عليها إذا صاحت أو نبست بحرف ثم وقعت على الأرض مغشية عليها. وقتها استيقظت ابتسام من النوم وهي

تنظر الي زوجها عزام مفزعةً مما رأت في منامها أنارت المصباح الضوئي الذي بجانبها فوجدت آثار جرح في خد زوجها الأيمن، ولكنه كان يعط في نوم عميق.

فزعت ابتسام ثم نهضت وقد اشتدت حلكة الظلام وخيم السكون الرهيب الا من نعيب بومة مخيف، نهضت وهي مرعوبة تتعرق من شدة الخوف، وشعرت أن هناك شيء يتحرك بداخلها. لم تستطيع النوم في تلك الليلة، فقد كانت خائفة جدًا من الاستغراق في النوم ومشاهدة نفس الحلم، وتدوي في اذنيها أصداء كلمات ذلك الشبح. "وإلا كانت النتيجة ذبح أولادك".

كانت الساعة تشير إلى الثالثة في منتصف الليل، سمعت أصوات تعالت لوقع خطوات قادمة من الجهة التي أمام الباب الخارجي للبيت. فزّت من مكانها تنظر من النافذة الكبيرة التي في صالة الشقة كي تسمع الصوت. قامت محاولة فتح النافذة المقفلة من الداخل. ألقت نظرة سريعة على الساعة ثم اتجه باحتراس نحو النافذة الآخر لكن دونما فزع، فقد خمنت أنه لأحدي القطط التي تأتي الي حديقة البيت ليلاً، وحينما عادت اتجهت الي غرفة الأطفال فوجدت سرير ابنها خالياً وليس موجوداً في سريرة، في تلك اللحظة انتابها خوف

حقيقي. التفتت بسرعة ناحية صوت صدر من ناحية الباب ولكنها ارتاحت حينما ظهر ابنها من ناحية الباب، وعندما تحدثت معه سألها:

- أين كنت في ذلك الوقت المتأخر يا أمي؟

وبدلاً من سؤالها عن سبب تركه سريرة، أخذت تبرر له سبب ذهابها الي جهة النافذة في تلك اللحظة ولم يكن هذا بالشيء الهين عليها، حتى نام ابنها. وبالرغم من ذلك وقفت بجانب النافذة مرة أخري ويدها على صدرها، اتجهت وجلست على الأريكة كي تقاوم نومها، قاومت كثيرًا ولكنها استسلمت للنوم وحلمت بذلك الكابوس المزعج مرة أخري.

عندئذ هيأت ابتسام نفسها لتكون بمثابة سياج حول أطفالها. ولقد كانت حريصة على حمايتهم من أن لا يشاهدوا ما تشاهده عمتهم هند، وتمنت بالطبع الا يري زوجها شيئاً، وأن يظل هذا الشبح مختفياً عن ناظرهم وليس كما هو الحال معها حتى في تلك الأيام كانت ابتسام في غايت القلق، ولم تستطع أن تغمض لها عين لكنها دائما ما تقاوم هذا في نومها، وتهمس في نفسها:

- لماذا لا تخبرني هند عن سرها هذا من قبل، ماذا أقول لها، لقد تبدلت الأحوال كثيراً منذ أن جاءت للعيش هنا، ولو أنها

قالت لي شيئاً، قد يمكننا أن نشترك معها في المشكلة، بل يمكننا أن نعيش سوياً هذا الشيء المزعج، ونتعلم من قدرنا الغريب.

كانت تلك الفترة فترة ترقب وقلق، لكن انتظارها لم يستمر طويلاً حتى تحول هذا القلق الي برهان مخيف!

*****

وقبل غروب شمس اليوم التالي وكان يوم جمعة، عندما كانت ابتسام تجلس بمفردها في الحديقة والأولاد يلعبون حولها. كانت سعيدة بهم وتشجعهم على اللعب سوياً. كانت هند جالسةً علي أحد المقاعد بجوار النافذة لتنهي قراءة كتاباً وهي تنظر إليهم من حين لآخر، نزل إليهم عزام كان يريد التمشي بالحديقة، وابتسام كالعادة كانت تلعب مع أطفالها بحماس شديد. ثم ذهبت هي وجلست على الكرسي بجوار المسبح الصغير لتقرأ كتاباً لم تنتهي منه بعد.

فجأة انتاب ابتسام إحساس غريب بأنهم مراقبون، لم ترفع نظرها لا الي اليمين ولا يساراً، لكنها ركزت وحاولت ان تقرأ من الكتاب. أحست احساساً أكيداً بوجود شخص غريب بجوارها. ومازالت تذكر الاحتمالات التي جالت في ذهنها، ربما هذا الشبح الذي رأته في منامها ليلة أمس، ربما هذا

شبح عوني زوج هند كما قالت لها من قبل عن وجوده معهم هنا بالبيت أحياناً.

فجأة أصبحا الطفلان ساكنين، لكن للحظة فقط. ثم شرعوا بالغناء وبدلاً من أن تنظر هي الي الكتاب الذي تقرأه تطلعت إليهما مباشرة، وانتابها القلق اذ ربما يكونوا أحسوا بوجوده الغريب، وتوقعت ان تصدر منهما صيحة اندهاش أو خوف. لكن لم يحدث شيء وعندما نظرت إليهم كانت تقف وظهرها للمسبح، خافت على أطفالها، فنادت عليهم كي ينتهوا من اللعب ثم صعدوا الي شقتهم، بينما أكمل عزام التمشي بالحديقة.

*****

حينما صعدوا الي غرفهم خرجت ابتسام بأسرع ما يمكن الي هند في شقتها، قرعت الباب وفتحت لها هند ثم صاحت ابتسام قائلةً:

- هل تحدثت مع أطفالي في شيء؟

- أي شيء؟

- الذي نعرفه. من ظهور شخص غريب في البيت او أن هنا شبح كما تقولي لي كأنه زوجك؟

- لا. بالطبع. كيف لي أن أتحدث معهم عن هذا، هما طفلان صغيران.

- منذ دقائق حينما كنت في الحديقة وكان معي أطفالي، وشعرت بأن شخص يراقبنا، قلت إنني أتوهم ولكن حينما نظرا الطفلان لي وسكتوا فجأة وبدأوا ينظرون بجواري كأنهم يرونه مثل ما رأيناه من قبل، ولم أحب أن ألفت انتباههم لذلك، ثم طلبت منهم الانتهاء من اللعب وصعدوا معي الي غرفهم.

- هل قالوا لك؟

- لم ينطقوا بكلمة. وهذا شيء مقلق.

- نعم.

- لكن كيف يمكن أن تعرفي؟

- لا أدري.

- أرجوا ألا تسأليهم عن ايي شيء. سارة أربع سنوات وفارس ثلاث سنوات.

- أنا مدركة لذلك تماماً. ولو أنك كنت موجودة معنا لأمكنك التحقق من ذلك.

بدت عليهما الحيرة وقالت لها هند:

- أنا لا افهم. ينبغي ألا تشغلي ذهنك بذلك. وعلى كل فربما يكون الأطفال غير مدركين لذلك.

- نعم هم لا يدركون أبعاد المسألة.

- أرجوا أن يكون الأمر كذلك. أما إذا كان العكس فهذا يدل على وجود شيء مزعج وشر لنا جميعاً.

أطرقت ابتسام برأسها الي الأرض لمدة دقيقة، ثم رفعت بصرها الي هند ثانية وقالت:

- من منظر وجههم. من الطريقة التي كانوا ينظرون بها الي جواري.

- تقصدين بالطريقة التي نظروا بها اليك.

- كلا، كلا. فهما لم ينظرا الي على الاطلاق، بل كانوا ينظرون بجواري، وأنا حينها شعرت بأن شخصاً ما بجواري مباشرة وشعرت به.

******

مر أسبوعين، وفي مساء أحد الأيام كانت هند في غرفة نومها، ولم تذهب الي فراشها. كان مصباح غرفتها مضياً،

جلست على كرسي مريح تقرأ كتاباً لم تنهي منه، وكانت هند تملك مجموعة من الكتب القديمة والتي قد تكون ممنوعة في بيوتنا الهادئة، وكان الوقت متأخراً جداً، لكنها كانت يقظة تماماً، وكانت كل من في البيت نائماً بالطبع، منذ عدة ساعات، وقد كانت مشدودةً كثيراً الي كتابها. الا أن قوة غريبة جعلتها تتطلع الي النافذة الزجاجية، تنصت للحظة، فقد سمعت أصوات قد سمعتها من قبل حينما جاءت الي بيت أبيها منذ الليلة الأولي لها، نحت الكتاب جانباً بحرص والتقطت هاتفها وخرجت من غرفتها بهدوء ثم خرجت من باب شقتها، وأغلقت الباب، ودون أن تعرف لماذا؟ سارت مباشرة عبر الممر المقابل لبابها ثم نظرت من النافذة الزجاجية الطويلة بأعلى الدرج ثم هبطت الي أسفل الي الطابق الأرضي، وعندما وصلت اليه، فجأة هبة الريح، كان ضوء القمر يخترق الأفق، ولاحظت أمام باب الطابق الأرضي وجود شخص هو شبح عوني، وكأنه خرج من الطابق الأرضي بعد اخترق الباب الخارجي.

وقف هو أمامها، نظر اليها بنفس النظرات السابقة، ووقفت هي أمامه وكأنه جاء محباً لها، ولم تشعر منه بأي خوف على الرغم من أنه قد مر عليها منه الكثير من الألم والانزعاج، ولكنها الآن تشعر بالاطمئنان اليه، فهي تشعر بأن هناك

مشاعر غير عادية تتفوق على ارادتها، وهي تعرف أنه لن يصيبها بأي أذى، لكنه قد يبدوا لأي شخص آخر أنه انسان مرعب، أو مجرم أو شبح مخيف. لكنه لم يتبادل معها الكلام وكانا صامتان وهذا هو الجزء الغير طبيعي في علاقتها به الآن. انه كان زوجها ثم غاب عنها في أمور غامضة لا تفهمها حتى الآن لأكثر من عامين وأثناء رقودها بالمستشفى هذه السنوات الماضية الطويلة. وهي تتعجب الآن منه لم يتكلم معها ولا يتحرك قيد أنملة، ودائماً ما يمر الوقت سريعاً بينهم ثم يبدأ في الاختفاء داخل الصمت ذاته وكأنه خادم حي مطيع لها وكأنها أصدرت له أمراً بالانصراف وعادت عبر بسطة الدرج الي شقتها في الطابق الثاني.

*****

الفصل السابع

قَتل بأمر الجن

في مساء اليوم التالي في حدود الساعة الثامنة والنصف، جلس عزام وزوجته عند المسبح في منزلهم والذي يتميز بالهدوء بكل أجوائه فالبيت على أطراف المدينة ومن يسكن به يشعر أنه يعيش في زمن الإمبراطورية الرومانية، ينظر عزام إلى زوجته ابتسام فليس بالبيت سواهم، فقد خرجت هند لشراء بعض الأشياء الخاصة بها، كان قد أنهى كوباً من العصير وأشار من بعيد رافعاً يده لأطفاله بأن يلعبوا بهدوء. لم تستطع ابتسام أن تتحدث معه بشيء الليلة، فقد كانت مختنقاً بالكلام، لذا أشارت إلى أطفاله مرة أخري أيضاً ليلعبوا بهدوء. ثم بدأت ابتسام تتحدث الية بهدوء قائلةً:

- أشعر ان قوة الشر تستحوذ على هذا المكان يوم ما. أنه بيت مسكون.

- ماذا؟

- أقول إن هنا قوة شر بسبب شبح يسكن معنا بالبيت، ولو أردت الدقة قد يكون هو شبح عوني زوج هند، أو شبح أبيك

الذي قتل فجأة من قبل. أشعر أن هذا المكان قد سُفك فيه من الدم الكثير.

- لا أفهم. ماذا تقصدين بهذا الكلام؟

- أختك هند غريبة الأطوار، وكما تري هي تعيش دائماً في عزلة.

- أنت مجنونه!

- عليك أن تقبل الحقيقة الأليمة، أختك هند دائماً ما تري زوجها عوني هنا ولكن كأنه شبح. وأنا لا أفهم وفق تفسيري الخاص أحقاً هذا صحيح؟ أو كما قالت لي هند أنه من عالم آخر عالم خفي.

- والله. أنت مجنونه. كيف هذا، أنا كل ما أعرفه أنه حقاً اختفي وغاب عنا فجأة دونما أي إشارة لذلك، لكنه كان صديق لي منذ فترة الدراسة.

- قل لي من كان يقوم من قبل بتمزيق والتهام الناس؟ نسيت تلك الجرائم السابقة والتي لم يكن لها تفسيراً غير انه كان شبح.

- وما علاقته عوني بهذا؟ تقصدين أن عوني من قام بهذه الجرائم؟

- نعم. أوقد جُن واعتزل العالم.

- ها. الآن تقولين إنه جُن أي صار مجنوناً، واعتزل العالم. اذن هو من عالمنا.

- نعم. ولكن أنا لا أفهم شيء. أشعر بالخوف منذ أن جاءت هند للعيش معنا.

- لا تخافي من شيء انها أوهام تعيش فيها هند، ولا أعرف كيف أُخرجها من هذا العالم.

- لا أحب أن أسمع هراءك هذا.

- أنت مخطئ يا عزام.

صمتت ابتسام لحظة، فانتبه لها عزام فقال لها:

- علام الصمت يا ابتسام. اذهبي الي النوم، وخذي الأطفال معك، أريد أن اجلس قليلاً بمفردي.

نظرت إليه. وقالت:

- أشعر بالاختناق؟

- لماذا اذن؟ اذهبوا الي غرفكم الآن، وأنا اجلس هنا نصف ساعة لا أكثر، ثم الحق بكم.

ولكن ابتسام تتجنب أن تفصح أكثر عما بداخلها حتى له، وكـانت تعرف بأن هذا الأمر ليس هو من يفهمه ولا يستطيع أن تقول له شيئاً، وهو يرى أن أمورها كئيبة الي حد ما.

لم يكن أمام ابتسام إلا أن تذهب الي نومها وأن تأخذ أطفالها معها، وكم تمنت لو كان مزاجه معتدلاً لجلست معه وقالت له الكثير، أو أختصر الكلام كله في كلمة واحدة سوف افتقدك، لكنه مختنق ولا يعرف هو ايضاً لماذا؟ تنظر إله متسائلةً منتظرةً، ولو قال لها اجلسي لدقائق ولكنه لا يرغب في الجلوس مع أحد، وكأنه يشعر بالاكتئاب وكل هذا عانى منه عزام في هذه الأيام الأخيرة، فهو حالة من التوتر والعصبية توشك أن تكون مرض الكآبة.

ذهبت ابتسام متجه الي شقتها وهي في طريق المتجه الي درج البيت، ركد ابنها فارس مسرعاً الي الشقة التي تقع في الطابق الأرضي من البيت وركدت خلفه سارة وقد وجد الباب مفتوحاً، أسرعت ابتسام مهرولةً خلفهما، وفجأة أُغلق عليهم الباب من الداخل ولم تعرف هي من فعل هذا، هتفت ابتسام بصوت عالي وهي تجذب أطفالها لسترتهما من الخوف:

- عزام. عزام. يا إلهي. من فعل بنا هذا؟ كنت أشعر بأن هذه الغرفة بها شيء غامض.

- ماما. ماما. أنا خائف.

- لا تخافا.

- عزام. عزام. عزام.

- بابا. بابا. بابا.

- ماما. ماما. ماما.

اتجه إليهم عزام مسرعاً لكنه لم يجد حلاً لفتح الباب، وفجأة انقطع التيار الكهربائي عن البيت، أضاء الهاتف المحمول، وراح يفتش عن مفتاح للباب، صعد الي اعلي كي يحضر مفتاح الغرفة فقد وجده في الحقيبة الجلدية، مد يده والتقطه مسرعاً وقد سمع حينها صوت صراخهم، اندفع عزام في غيظ نحو الباب ولكنه بعد محاولات كثيرة لم يُفتح. احضر المطرقة وهرع نحو النافذة المصدة وأوسع المقبض ضرباً. وهو يقول:

- لا تخافوا. لا تخافوا.

في تلك اللحظة رأوا شيئاً مروعاً جاءهم من الخلف، هجم الشيء هذا ومزق زراع الأم، وظل الأطفال في صراخ مستمر، أنه شيء لم يستطع أحداً أن يتخيله.

صرخت ابتسام في رعب بصوت مختنق.

- أتركني. أتركني يا أحمق. أترك أولادي.

وفجأة لا يسمع صوت أي منهم. فُتحت النافذة، وأخذ عزام شهيقاً عميقاً، ودخل إليهم وقد أضاء الهاتف المحمول، ثم نظر يميناً ويساراً، وهو يقول:

- أين أنتم؟ ابتسام. ساره. فارس.

وفجأة، أطلق صرخة طويلة، وهو ينظر حوله قد اتسعت عيناه حينما رأي الرؤوس المقطوعة.

- مستحيل. مستحيل. يا إلهي. يا إلهي.

فقد وجدت الجثث ممزقه. وجاء الجيران علي صوت الصراخ يتزاحمون ويتزايدون الي البيت. وجاءت رجال الشرطة وبعض رجال الصحافة يتكلمون ويلتقطون الصور، ثمة شعور يغمر الجميع أن هذا غير حقيقي. الجثث قد مزقت وسط المكان الغارق بالدماء المسفوكة، ومن الواضح أنها مزقت بسلاح حاد ولو دققنا لوجدنا أن من فعل هذا ليس

شخص عادياً، رائحة الدم المسفوكة فالمكان، اللحم الممزق في كل مكان، الرؤوس الثلاثة متناثرة في كل مكان والأمعاء والأحشاء متلاشية.

*****

كانت تري هند الموت في جبهت ابتسام وأطفالها وكأنه كتب بين أعينهم سوف تموتون قريباً، وجميعنا كان يدرك أن ابتسام وأطفالها سوف يموتوا قبل الجميع، وسوف تموت هي بأبشع الطرق، لقد تلقت أكثر من طعنةً، اقتلعت العيون والعظام تهشمت والتهم الشبح زراعها كاملاً، فهل عرفت هي الأخرى ما لا يجب معرفته؟ التمثيل بالجثث يوحي بحقد دفين يوحي بقاتل مجنون يوحي بثأر بينهم، فلا أحد يقطع لسان القتلى ويهمش أصابعهم بهذا الأسلوب السادي المروع ما لم يكن شبحاً أو شيطاناً.

*****

أجرت المباحث عملها الجنائي لكشف غموض الواقعة، واتضح ان القاتل كان تخطيطه لا ينصب على شيء الا القتل، لذلك بدأ الشك في عزام كونه هو من كان في المنزل وفي مسرح الجريمة وقد يكون على علاقة بحادثة القتل بناءً على أسباب نفسية وخاصة مع انتشار جرام قتل الآباء

لأبنائهم وبعد معاينة مسرح الجريمة والكشف عما بداخله من الأثار والعلاقة بينهما، ومدلولات كل آثر، قد اتضح من أثار البصمات والدم أن عزام ليس له علاقة بالجريمة وأن من أرتكبها هم أشخاص آخرون.

*****

مر أسبوعين وقد قرر عزام الانتقال الي بيت آخر وشقة جديدة تكون هي الأفضل لهما، فهما الآن يمران بظروف نفسية حادة من هول ما مرا بهما من آلام وانزعاج. ولزاماً عليه الانتقال الي مكان آخر وترك هذا البيت المحش.

بعد مرور شهر بدأ عزام الاعتناء بنفسه وبصحته ومعيشته، ولا مانع من ذهاب الدكتورة هند معه الي الشقة الجديد، فلا يجب أنت تعيش بمفردها هي الأخرى. على الرغم من أنهما سابقاً قد انتبها إلى المبنى القديم لبيتهما من قبل ولأنه كان بيتاً كبيراً واسعاً فقد فضلا العيش به.

*****

الآن هما في شقة جديدة وفي بناية حديث وتتألف من تسعة طوابق، في كل طابق تعيش فيه عائلة صغيرة العدد، أما الطوابق الآخرين منه ففيه شقتان صغيرتان متقابلتان بشكل

غريب وبالطابع الرابع منها تقع شقتهم الجديدة. في كل طابق ثلاث شقق لا يفصل بينهما سوى مسافة مترين تقريباً، وكل شقة تتألف من ثلاث غرفة صغيرة وملحقاتها وغرفة للاستقبال ومطبخ في أعماقه تقع غرفة النوم والحمام بين الغرفتين ثمة باحة كبيرة وواسعة جداً تفصل الباب عن الغرف. بيت حديث له طراز ديكوري حديث وفي وسط المدينة، ولكنهم نقلوا نفس قطع الأثاث التي صنعها يوما ما فنان قديم، ونفس الستائر والصالون وبعض اللوحات المكتوب عليها آيات من القران الكريم هذا كله جعلهم يشعرون بالاطمئنان الي حد ما.

بدأت الدكتورة هند بالقيام بأعمال البيت فهي تنجز واجباتها البيتية كالعادة كإعداد الطعام وغسل الملابس، تقضي بعض وقتها في القراءة، وحينما تعود من عملها من المستشفى، تتجه للصلاة وقراءة القرآن بانفعال ورهبة. وقد اختفى شبح زوجها عوني عنها فجأة.

*****

عاد الدكتور فتحي من عمله بالمستشفى عند الغروب. كان تعباً، وساهياً، ومهموم الملامح، وما أن فتح باب الشقة حتى وصلت أنفه روائح الطعام الطيبة، رائحة الملفوف الزكية،

وروائح البهارات المنبعثة من طهي اللحم الذي أعدته زوجته الدكتورة غادة، لكنه ذهل حينما دخل إلى غرفة النوم مباشرة ورأى زوجته الدكتورة غادة في ثوبها الأنيق الذي زادها جمالاً.

ظلت هي واقفة منتظرة أن يقول لها شيئاً، فقد ظل للحظات يتأملها، ثم استدار وخرج من الغرفة متجها إلى المطبخ، وسمعت أصوات الأطباق، فأصيبت بخيبة كبيرة وإحباط، وأحست بغضب خفي يجتاحها، ولا تعرف لماذا برق للحظة في ذاكرتها البصرية وجه صديقتها الدكتورة هند ثم اختفى.

فكرت الدكتورة غادة مع نفسها للحظة: أمن المعقول أنه لم ينتبه إلى ثوبي الأنيق، أعتقد أنه قد تأملني جيداً لكنه لم يعلق لي بشيء، لماذا؟ ولم يبدُ على وجهه أنه لم ينتبه؟ هل أنه جائع إلى هذا الحد الذي لم يدعه أن يبدي رأيه؟

مضت خلفه إلى المطبخ. وجدته قد صب لنفسه شيئاً من الأرز في طبق، فأسرعت هي وصبت له مرقاً في طبق آخر ووضعت له صدور الدجاج لأنها تعرف أنه يحب صدور الدجاج، وأخذت الأطباق ووضعتهما في صينية دائرية. كان هو منهمكاً بغسل الملعقة، التفت إليه وقالت:

- هل أنت جائع إلى هذه الدرجة؟ يبدو التعب على وجهك، ألم تأكل شيئاً طوال النهار منذ أن غادرة أنا من المستشفى. أين كنت؟ لماذا هذا التأخير يا دكتور؟ من الطبيعي أنك انتهيت من عملك قبل ذلك بساعات؟ اين كنت؟ ولقد اتصلت عليك كثيراً ولكن كانت شبكة تلفونك المحمول غير متاحة!

ارتسمت على وجهه ابتسامة خفيفة وقال بهدوء:

- على أي من هذه الأسئلة أجيب أولا؟ نعم أنا جائع جداً وأنا تعبان جداً، ولم آكل شيئا حتى الآن، أما أين كنت، فقد استغرقتُ في إجرائي لعملية البواسير أكثر من ساعة، وبالمناسبة أعتقد أن من المضاعفات المُحتملة لعملية البواسير نادرة الحدوث أليس كذلك؟

- بلي ومع ذلك قد تتضمن كغيرها من العمليات الجراحية بعض المخاطر، مثل النزف. إذا تحسس المريض من التخدير الطبي المجرى أو الإصابة بالعدوى.

- أراك قد طبخت كل هذا ورتبتي البيت على الرغم من مغادرتك المستشفى قبل ساعتين، ما سر كل هذا الانقلاب يا دكتورة؟

انتبهت الدكتورة غادة إلى أنه قد لاحظ كل شيء لكنه لم يعلق في حينها لأنه وكما يبدو جائعاً بالفعل.

- أين الأولاد؟ لم اسمع صوت أحدهما؟

- نائمان، على الرغم من أني أعرف ان اخذ القيلولة في وقت مبكر من النهار قد يرهقهما لأن جسدهما لا يكون مستعداً بعد لساعات إضافية من النوم عند الليل.

- لا بأس.

- هل تناولا طعام الغداء؟

- لا. حينما يستيقظان من نومها.

حملت الدكتورة غادة صينية الطعام بعد أن صبت لنفسها صحنا من الأرز وعليه شيء من الكوسا وقطعة من الدجاج ووضعتهما في الصينية وذهبت إلى طاولة السفرة في صالة الشقة، فهو كثيراً ما يفضل أن يأكل هناك على هذه الطاولة الموضوعة في جانب الصالة بعد أن يقرب الكرسي منها. تبعها هو حاملاً بعض أطباق الأرز، ثم جلس هو يلتهم الطعام التهاماً، لم تشاهده الدكتورة غادة جائعاً بهذه الطريقة من قبل.

كان الدكتور فتحي يأكل وهو غارق في تأملاته، فلم ينظر إليها قط، كان ينظر في الصينية، يأكل بهمة ونهم وكأن عليه انجاز مهمة سريعة، لكنها أحست أن فكره في مكان آخر، هذا واضح من نظراته الشاردة ووجهه المتعب، وعدم انتباهه لها. همست هي في نفسها وقالت: يا ترُى فيما يفكر؟ وأين يذهب في هذا المساء اليوم؟

لم تنتظر هي إلى أن تنهي طعامها إذ قامت إلى المطبخ لتعد الشاي لهما في كوبين، فوضعت الماء في الدورق الخاص بغلي ماء الشاي وأشعلت الطباخ. كانت تأكل وتنظر إليه، لم ينتبه لها إلا حينما أوشك على الانتهاء من الطعام. كانت هي أيضا على وشك الانتهاء، وكانت ملامح الارتياح قد بدأت تأخذ مكانها على وجهه، ابتسم لها بطيبة وكأنه انتبه لوجودها وكأنه أراد بابتسامته أن يعتذر لها.

قامت مسرعة إلى المطبخ حيث أعدت الشاي بعد أن كان الماء قد غلى في الدورق وكاد يتبخر منه، ثم قامت هي بغسل الأطباق وقام هو باستكمال صب الشاي في الكوبين وأثناء ذلك أحضرت صينية الشاي ووضع الشاي فيه، فعادة حينما يريد الراحة والسهر في البيت فأنه يشرب القهوة المحلاة بالحليب والسكر وإذا ما كان على عجلة من أمره، أو جاءه

ضيوف من أهله فأنه يفضل أكواب الشاي، واليوم لاحظت أن مزاجه ليس سيئاً على الرغم من التعب الذي كان فيه. فحمل دورق الشاي في الصينية أيضا ومضت إلى حيث كانت هي جالسةً.

*****

وفي ذات المساء وبعد انتهائهما من وجبة العشاء، ذهبت هي لإعداء كوبين من الشاي، أطفالهم يلعبون في غرفهم وحينما دخلت صالة الشقة وجدته جاساً على الأريكة وهو يشاهد التلفزيون من غير انتباه أو تركيز، فجلست على الأريكة القريبة منه، ووضعت صينية الشاي على الطاولة التي تتوسط الصالون. نظرت إليه بتساؤل، فانتبه لها وفهم ما وراء نظراتها، فقالت له:

- هل تعتقد يا فتحي بأننا سعداء؟ نحن جميعنا تعساء في هذه الحياة.

تعجب من سؤالها، واجابتها الغير متوقعه على نفسها، فقال لها بنبرة هادئة:

- لا أفهم؟

- أحسن. لأن الفهم كثيراً ما يسبب لنا التعاسة أكثر، ووجع الرأس!

أحس بالخيبة من جوابها وقال:

- تمزحي معي. أليس كذلك؟

نظرت إليه مشفقةً وقالت له بلامبالاة:

- الفهم والمعرفة تجلب الهم والشقاء والنكد يا دكتور.

صمت للحظات وهو يتأملها. ثم قال بنبرة مشوبة بخيبة مكتومة:

- ربما أنت محقة في هذا.

كان هو أثناء ذلك يشرب الشاي، أما هي فقد تركته من يدها حتى صار بارداً.

على الرغم من طريقتها معه إلا أنها أحست بأنها صارت أكثر قرباً من زوجها هذا المساء، وسوف يبقى الليلة ولا يخرج وبعد أن اطمأنت انه لا يخرج كعادته الي عيادته في وسط المدينة، قامت إلى المطبخ وفتحت أحد الخزانات العلوية وأخرجت أكياس الفستق واللوز وبعض قطع الشكولاتة، ووضعت من كل صنف شيئا منها في طبق

صغير ووضعتها في الصينية وحملتها إلى الصالة، فوجدته جالسا باسترخاء على الأريكة متكئاً على جانبها وهو يقلب القنوات التلفزيونية، فوضعت الصينية أمامه وجلست على مقربة منه، فقال لها:

- تعالي أجلسي قربي. أريد أن أعرف منك بعض الأشياء.

جلست قربه على الأريكة من الطرف الآخر. صمتت لحظة بانتظار أن يسألها، إلا أنه كان منشغلا بالتنقل بين القنوات إلى أن استقر على قناة عربية تعرض مسلسلاً تلفزيونياً جديد، ثم وضع جهاز التحكم جانباً أحسها قريبة منه وأسعده ذلك، فالتف إليه هي سائلةً:

- لقد انتابني قلق وخوف عليك اليوم حينما تأخرت.

ابتسم لها وسألها بهدوء:

- لماذا؟ هل تخافين عليّ إلى هذا الحد؟

خجلت من سؤالها فهو لأول مرة منذ زواجهما يسألها هذا السؤال، وبهذه الهدوء، فابتسمت، وشعرت بسعادة وسلام حقيقي يغمر روحها. وقالت:

- كيف لا أخاف عليك، ألست زوجي؟

- هل تخافين عليّ لأني زوجك فقط؟ أم لأنك تحبينني؟

- وهل يحتاج هذا إلى سؤال؟

- طبعا. لذلك أسألك!

- أنا التي أريد أن أسألك، هل تحبني؟

- وهل يحتاج هذا الي سؤال؟! كيف لا أحبك، أنت زوجي؟

صمتت الدكتورة غادة للحظة، وشرد ذهنه هو، ثم التفتت إليه وسألته وهي تحدق في وجهه:

- هل كانت تحبك زوجتك السابقة، كما أحبك أنا؟

- تقصدين طليقتي!

- نعم.

أربكه سؤالها وأحس أن كل ما يبنيه من أفكار عن تطور علاقته معها وتقربه منها ليس سوى أوهام. فما زالت زوجته السابق تمتد كهوة سوداء بينهما، فهي تغار من زوجته السابق على الرغم من انفصالهما أكثر من ستة أعوام، فهمس في نفسه وقال: فكيف لها لو عرفت بأني عازم على الزواج من صديقها الدكتورة هند. فهي حتى الآن لا تستطيع أن تنسى بأن ثمة امرأة آخري كانت في حياتي وكانت يوماً ما

زوجتي. فالمشكلة لديها أن امرأة أخري كانت في حياتي، لذا فهي تطرح سؤالها من باب الغيرة، لكن كيف له أن يجيبها!

صمت للحظة وكأنه يريد أن يبرهن لها سبب انفصالها، فقال:

- انها كانت امرأة قاسية القلب، وكانت تسيء المعاملة معي ومعي الآخرين على الرغم من أنها كانت طبيبة. كانت حياتي معها غير مريحة، كانت جحيماً، بينما أنت إنسانة مختلف. إن حياتي بدأت معك أنت، منذ اليوم الأول من زواجنا.

ابتسمت مع نفسها ابتسامة خفيفة وهي تسمع لجوابه، فكّرت مع نفسها أنه ذكي، لذلك التفتت إليه وسألته:

- والدكتورة هند؟ كيف هي علاقتك معها؟

كان سؤالها صادما بالنسبة له، فقال محاولاً تفادي المواجهة:

- الدكتورة هند؟ علاقتي بها طيبة، عادية، هي علاقة عمل فقط، وأنت تعرفين ذلك، علاقتي بها نفس علاقتك أنت بها أيضاً. ربما لأني زوجك وأنت صديقتها الوحيدة التي دائماً ما تتحدث معك في المستشفى، فهي لا تتكلم تقريباً مع أحد غيرنا.

- وهل أنت فعلاً تفكر في صداقتي بها؟

انتبه إلى أنها تشير إلى المشهد الذي رأته عندما ذهبوا لزيارتها في بيتها ولاحظة هي أنها كانت في زينة كاملة، فقال بحذر شديد:

- طبعاً. لم أري لك صديقةً مخلصةً مثلها.

نظرت إليه وكل ملامحها تعبر عن لا تصديقه لجوابها، وقالت:

- متأكد؟

شعر بالقلق، وتهيأ ليدافع عن نفسه، فها هي تتهمه بشكل غير مباشر، فقال:

- ماذا تقصدين؟

صمتت للحظات ثم نظرت إليه وكأنها تقول له، إني أعرف كل شيء، لكنها أجابت:

- لا أقصد شيئا؟

ونهض من مكانه متجهاً إلى كرسي قبالتها وجلس عليه، ومن هناك سألها بقصدية واضحة، مستطلعاً رأيها:

- ما رأيك أنت بالدكتورة هند؟

- لقد أحببتها، وتعاطفت معها، لكني أستغرب لماذا لم تكمل لي حكايتها بعد أن تزوجت من زوجها غريب الأطوار الغائب عنها، وكأنه سراً فهي لم تقول لي الا القليل؟

- ولماذا أحببتها أنت؟

- لأني أعتقد أنها مظلومة، ووجدت نفسها في ظروف صعبة، لكنها كانت تخطئ في ذهابها الي هؤلاء الدجالين والمشعوذين واعتقد أنها الآن تتعذب لخطئها الذي اقترفته.

صمت للحظات ثم سألها فجأة:

- هل وجدتها قريبة منك، اقصد هل تتوافق مع عقليتك واتجاهاتك النفسية؟

- نعم، على الرغم من اختلاف تفكرينا كثيراً.

ابتسم لها معجباً بذكائها في الحديث معه، فهو لم يلتفت الي ذكائها من قبل والذي لم يكن يقدره هو جيداً، فهي لا شك تعرف كيف تتخلق الأسئلة وتتهرب من مواضيع الإجابات إذا طرح عليها سؤالاً لا تريد الإجابة علية، بل لديها رؤية ثاقبه، فهي انسانة منطقية، عاقلة.

صمتت للحظة ثم واصلت قائلةً:

ـ أنا اتحدث عنها بصراحة بينما يستحي الآخرون الاقتراب منها!

*****

خرجت الدكتورة هند كعادتها كل صباح متوجهةً الي عملها، وقد شعرت بالقلق الشديد ومن سير الأحداث التي تمر بها، خاصة وأنها ظلت قلقة حائرة تتلاعب بها الأفكار والظنون منذ مقتل زوجة أخاها عزام وأطفاله، بالإضافة أن لديها الآن رغبة شديه للبحث عن زوجها عوني والتي تشعر بأنه سبب كل ما يجري حولها من أحداث، وتتساءل إذا كان هو جني حقاً فلماذا تشكل لي خاصة في ثوب انسان يدعي المهندس عوني؟

وصلت الي عملها وبمجرد أن مرت ساعة، استأذنت وأسرعت بالذهاب إلى مقر السجلات المدنية ظننا منها أن تحصل على بيانات دقيقه عما يدعي عوني. أسرعت السير إلى مبني السجلات المدنية وهي علي أمل أن تصل الي شيء من ملفات السجلات القديمة، فقد قال لها من قبل أنه يتيم الأبوين وليس له أخوه ولكن أين عائلته التي كان ينحدر منها قبل معيشته في القاهرة؟ كل ما تعرفه عنه حينما جاء مع أحد أقاربه يوم خطبتها ولم تري له أحد من أقاربه بعد ذلك.

*****

وفي مبني السجلات صعدت السلم بسرعة وبضجة كبيرة، كي تبحث عما تريد معرفته وهي في حالة من الخوف لأنها لا تريد أن يترصد أحد حياتها وخروجها ودخولها، إلا أن خيبتها كانت كبيرة حينما لم تجد له أية بيانات أوليه! شعرت بغضب شديد واعتقدت أن الباب مسدوداً أمامها وأمام ما تريد معرفته فلم تصدر لها أية أشاره يتضح منها ما تبحث عنه حتى الآن. وتذكرت أنه غادر قريته حينما وصل القاهرة في ظروف غامضة.

فهي تبحث عنه ولكن بلا جدوى فهي لا تعرف عنه الكثير وكأنه اختفى من على وجه الأرض، فلم يكن أمامها سوى الذهاب الي قسم الشرطة ظناً منها أن تعرف سبب عن اختفاءه. على الرغم من أنها تيقنت من قبل أنه جني، بل ومتأكدة في زواجها منه ولكن لا أحد يصدقها بل ويعتبرونها مجنونه إذا تحدثت بهذا.

ما يراودها الآن أنه غاب عنها تماماً ولا يظهر لها في أي صورة كانت. هي تريد أن تعرف الآن لماذا جاء اليها هذا الجني وتشكل في هذا الشخص خاصة والذي يدعي عوني؟

وجاء ليتزوجها؟ ولماذا تزوجها هي؟ وليس من غيرها؟ يا تري من هو هذا الشخص؟

*****

اعتكفت في بيتها تنتظر خبر من أحد، وهي تؤكد دائماً بأنها لا ترجو أكثر من أن تتأكد من ظنونها ومن أجل أن تعرف هل هو حقاً له وجود بعالمها وله علاقة بما يحدث حولها من جرائم غامضة أم لا؟

مع مرور الأيام اكتسبت هند نوعاً من الحياد تجاه كل ما يحيط بها. فقدت شهيتها لكل شيء. لم يعد من أمر يحرك وجدانها بقوة. لقد ركزت عواطفها أكثر في الغائب البعيد. تمني النفس بعودة محتملة. أحياناً تبدو الحقيقة قريبة، وأحيانا أخرى بعيدة جداً، بل كانت أحياناً تشعر أنه ليست في حقيقة الأمر سوى أضغاث أحلام. الحقيقة تكبر أمام عينيها أحياناً. تحاول جاهدة أن تنقل في نفسها كل ما يمكن أن يقربها من حقيقة زوجها. في أحايين عدة تحدثها نفسها في أنه سيعود قريباً.

بدأت الدكتورة هند تذهب مراراً إلى حيث تشعر بأنه قريب منها. قطعت المسافات مرات عدة. رحلة تتبعها برحلة أخري، ومع ذلك كانت مصرة على القيام بهذا، تريد أن

تعرف الحقيقة. في الشهور السابقة كانت تشعر وكأن أحداً يبعدها عن معرفة مكانه أو كأنها تبحث عنه في مكاناً لا يحق للأنس الاقتراب منه. تحملت قسوت الحياة بكثير من الصبر والأمل.

*****

ساءت حالتها النفسية والصحية، وهناك في المستشفى بدأ بعض زملائها من الأطباء يجتمعون أحياناً ويتحدثون في الأمر فقد سمع البعض منهم أقاويل وحكايات عنها. لكن كل كلامهم يذهب أدراج الرياح لئلا أحد قادر على ترجمة ما يحدث لها. يحاولون المرور عليها أحياناً في مكتبها وفي أثناء متابعتها لحالات مرضاها، لكن لا أحد يستطيع مساعدتها، والبعض يمكنه إلقاء نظرات قريبة عليها، يحاولون تقديم المساعدة لها. لكن كل ذلك باء بالفشل، لأن الأوامر صارمة، بعدم اقتراب أي أحد من الحقيقة الغامضة.

*****

في صباح أحد الأيام، حينما جاءت الدكتورة هند الي مكتب صديقتها الدكتورة غادة لتناول القهوة فقابلتها هي بعطف ومودة ودائماً ما تشجعها على البحث عن زوجها الغائب.

سألتها الدكتورة هند بابتسامة:

- كيف حال أولادك؟

قالت لها وهي حزينة:

- ابنتي مريم ليست على ما يرام.

- ماذا حدث لها؟

- لم تنم ليلة البارحة ولم تشعر بالراحة بسبب ارتفاع درجة حرارتهما.

- هل هناك عدوا داخلية أو خارجية؟

- لا.

- يجب أن تبقي في البيت، حتى تصبح أكثر قوة وحيوية.

- الحمد الله علي كل شيء. هل استلمت اية رسالة من أحد عن مكان زوجك؟

- لا.

- لماذا؟

- لم يذكر لي أحد شيئاً علي وجه التحديد، ولكني أعتقد أن جارنا الذي يعمل في مديرية الأمن سوف يهتم بالأمر.

- كل شيء وله نهاية، انتظري واصبري وكل شيء سوف يظهر في الوقت المن

- اتمني هذا.

- استعيني بالله.

- ونعم بالله. الحمد الله علي كل شيء.

*****

بمرور الأيام ارتخت قبضة الأشباح عن هند، وكأنهم سمحوا لها تدريجيا أن تعيش في هدوء وتواصل هي البحث عن زوجها. حين يقترب المساء، تعود الدكتورة هند من عملها إلى البيت ثم تخرج الي قسم الشرطة ولكنها تعود الي البيت مرة أخري حاملة معها خيبتها وبعض الانكسار يظهر على ملامحها، حتى أن اخاها عزام يظن أنه أمام امرأة أخرى، لا علاقة لها بالطبيبة الجميلة، التي سرق عقلها هذا الشبح، حزينة كانت، ومغلوبة على أمرها. تشعر بالعجز وقلة الحيلة. في لحظات معينة تشعر بمدى الانحدار النفسي الذي أصبحت تحيا على إيقاعه، تحاول أن تتدارك الأمر، لكن كل

محاولاتها تذهب سدى، هناك شيء ما في أعماق أعماقها تحطم، ولا يمكن أن ترممه وتعيده إلى ما كان عليه من قبل، سوى معرفة الحقيقة وظهور زوجها الغائب عوني.

*****

على الرغم أن بلاغات الغياب والاهتمام لا تلقى أي اهتمام من رجال الشرطة إلا إذا كان هناك ما يشير إلى وقوع جريمة وخاصة أنه قد مر على اختفاءه شهور، إلا أنه من حسن حظ الدكتورة هند كان أحد جيرانها يشغل منصباً كبيراً في مديرية الأمن، وأعطى تعليماته بتكثيف التحريات لمعرفة سبب اختفاء زوجها، وتم إسناد المهمة إلى ضابط مباحث شاب مجتهد، وبدأ تحرياته في دأب وصمت.

*****

بدأ عزام يلتزم بقراءة القرآن ويخاف من الجحيم ويخاف الموت وخاصة أثناء قيامه بزيارته للقبور مع أخته، فهما دائمان على موعد بزيارة ابتسام وأطفالها رحمهما الله، كانت هند تفهم كل التصورات عن عالم الموت وكانت تثير رعبهما الحقيقي أما عزام فكان يجلس ويتصور نفسه وحيداً في ظلمة الدنيا، يشعر بأنه يتغير بشكل مضطرد. قوته تنفلت منه،

تخونه. الضربة القوية التي تلقتها في وفاة زوجته وأبناءه أحدثت ألما في عقله وقلبه. بين فترة وأخرى يشعر بشيء ما ينغرس في صدره، ثم لا يلبث أن ينقلب إلى القلب، فيحس بضعف ووهن. يقاوم، يقاوم. يحاول أن يتماسك بكل ما يملك من صبر وإرادة، لكن الأمور أصبحت فوق طاقته. يلتجئ للفراش. يحزن على حاله. يئن. يناجي ربه، فتزيد حالته سواء. نبهته اخته هند إلى ذلك. لكن لا حيلة له. إن ما يحدث أكبر من إرادته. إنه ينهار تدريجياً، ولم تعد المقاومة تجدي نفعاً. في نهاية المطاف أقنع نفسه بأنه في حاجة ماسة إلى راحة طويلة الأمد. راحة أبدية. هكذا هو حظه عاثر، فليقنع به. إنه لم يعد قادراً على التحمل. حين تردد هذا الهاجس في نفسه شمله هدوء لا مثيل له، أصبح مستسلماً لقدره. لم يعد متحمساً لفعل أي شيء.

يشعر في قرارة نفسه أن هناك شيئاً ما سوف يحدث له مستقبلاً، هاجس ما ألقى في روعه أنه أبداً لن يرى أخوته ايضاً. لم يعد لديه القوة للاستمرار، كانت هند تستغرب طبيعة كلامه في الأيام الأخير ولهجته المضطربة. سألته هند يوماً:

- ماذا بك يا عزام؟ هل تريد السفر وتتركيني هنا لوحدي؟

امتد الصمت بينهما ثانية، حضنها عزام بقوة إلى صدره، ثم يرد عليها:

لا يا هند. لن أفعل ذلك، لكن لا أحد يضمن عمره.

تزداد هند ارتباكاً ويزيدها كلامه بلبلة، فبدل أن يطمئنها يضاعف خوفها. تلتصق أكثر بصدره وتبكي بصمت، وقد تداعى في ذهنها أنها لا بد فاقدة أخاها بعد أن فقدت كل من حولها.

في مساء اليوم التالي، جاءت اليهما اختهما وجدان فوجدت اخاها عزام نائماً، ولاحظت أخته هند تأخره على غير عادتها في مغادرة فراشه فقد طال نومه، ذهبت وجدان الي غرفة اخيها لتوقظه من نومه، ليجلس معهما، لقد أشفقت عليه وتركته مستلقياً في فراشه.

حين خرجت هند من المطبخ سألت اختها وجدان:

- لم لا توقظي عزام انه نائم منذ أكثر من ثلاث ساعات؟

- ظننت أنه لم يكتفي من نومه، أوانه بعافية فتركته حتى يستعيد عافيته.

- لا يا اختي. ايقظيه، سيغضب إن لم يراك ويطمئن عليك اذهبي وأيقظيه. وأنا سأتكفل بإعداد العشاء.

ذهبت وجدان الي غرفة أخيها وركض وراءها ابناءها. فتحت الباب، أخذت تنادي أخاها. لكنه لا يستجيب. جلست بجواره على السرير، حركته بلطف في البداية، ثم رجته بقوة، لكن بدون جدوى، لم يبدوا على أخيها أي استجابة. حينذاك شعرت هي بالفزع. خرجت مسرعة من الغرفة وتوجهت نحو أختها هند. ألفتها تطهي البيض. أخبرتها بأنها حاولت أن تقظه من النوم إلا أنه لم يستجب لها. تركت هند ما كانت بصدد القيام به. خفق قلبها بشدة. ركضت نحو الغرفة، أخذت تنادي أخاها بقوة.

- عزام. أخي عزام، هيا قوم!

لكن ما من مجيب، تقدمت نحوها وجدان. حركته بلطف، ثم بعنف. لا استجابة. حينذاك أطلقت وجدان صرخة قوية أفزعت أبناءها اللذان كانا يتابعان المشهد بوجل.

- التفتت هند نحو اختها ثم قالت:

عزام مات يا وجدان.

ردت عليها وجدان في ذهول:

- مات؟ لقد ماتت عزام! كيف؟

*****

مر شهران وفي ظهيرة يوم ما، كان الدكتور فتحي يحوم حول مكتب الدكتورة هند. أراد أن يدخل اليها لكنه لم يجد العذر المناسب. فهي لم تظهر له اهتمام به كما توقع. وكذلك لم تذهب الي مكتبة من قبل إلا لطلب شيئاً في العمل وليس للاطمئنان علية. لذلك وجد نفسه محرجاً من الدخول إليها، فرجع إلى مكتبه ليبقى فيه إلى أن يذهب لمتابعة مرضاه.

رن جرس تليفون مكتب دكتور فتحي. فنهض متكاسلاً وحينما رفع السماعة جاءه صوت أخية دكتور ثروت مرحاً.

- صباح الخير دكتور فتحي.

- صباح الخير يا ثروت.

- أين أنت يا رجل. افتقدناك. لم نراك منذ فترة. أرجو أن يكون المانع خيراً.

- والله ظروف العمل يا ثروت. ما هي أخباركم؟ أنا افتقدتكم أيضا. كيف حال أولادك؟

- إنهم بخير ويسألون عنك. هل لديك اليوم ما يشغلك عن العشاء عنا؟

- لا أبداً. ان شاء الله.

- سيكون ماجد معنا أيضاً. وهي فرصة لنجلس معه قبل أن يغادر بعد غد لحضور مؤتمره في دبي.

- سوف يسعدني ذلك. ان شاء الله.

فجأة، وعندما وضع السماعة لمح باب مكتبة يُغلق عليه من الخارج في بطيء دون أن يري أحداً. ظن أنه يتوهم ما سمعه من صوت اغلاق الباب، اندفع بسرعة ليفتح باب مكتبه فسمع صيحة ألم واشتم رائحة قبيحة، لم يدرك من كان خلف الباب وأغلقه، حاول ان يفتحه ببطيء، لم يستطيع فتحه وجد نفسه كالذي حُبس داخل مكتبه، وفجأة انقطع التيار الكهرباء عن المستشفى، مضي ناحية زر الإنارة محاولاً أن يديره، ولكنه رأي حينئذ شبح كأنه رجل يسيل الدم من أنفه فزع من ذلك ثم اختفي من أمامه. صاح بصوته عالياً كي يستغيث ولكن لم يسمعه أحد، اتجه خلف مكتبه خائفاً، ثم سمع صوتاً يقول له:

- لديك ما يمنعك مما تفكر فيه!

ففغر فمه وغمغم قائلاً:

- انا لا. لا. لا. لا. أنا لا أفكر في شيء. من أنت؟ من أنت؟

لكن ما لبث ان يتقدم هذا الشبح خطوة واهوي بقبضته في غير رحمة علي فك الدكتور فتحي جعلته يترنح ويهوي على

الأرض، ولكنه عبثاً حاول أن ينهض على الفور لا ليثأر لنفسه بل صاح حتى يسمعه أحد لكن الشبح قد هشم رأسه بعد أن نحرها بالسكين، لكن سرعان ما اندلعت النيران في المستشفى وبدأ العاملون يعملون على إطفاءها. وفي هذه اللحظة انصرف الشبح وقد خرج الأطباء والعاملين من غرفهم والفزع والخوف يتأجج في صدورهم من هول النيران.

- يا إلهي. ما هذه النيران؟

- أنه حريق هائل.

- لقد اتصلت بمركز الإطفاء.

- وأنا بعثت في طلب عربة الاطفاء الكبيرة ولا تلبث ان تأتي.

- يا إلهي.

- لقد اندلعت النيران في كل مكان.

- هيا أخرجوا كل العاملين بالمستشفى.

- أين الدكتور فتحي؟

- اعتقد أنه كان في مكتبه.

جاءت الدوريات الخاصة بالإطفاء ودوريات من الشرطة، فأمدتهم برجال آخرين وأسرعوا يلتفون حول المستشفى وراح رجال الإطفاء بالصعود الي الغرف العلوية وأسرعوا بإنقاذ المرضي وبعض العاملين بها.

شعر أحد رجال الشرطة بيد فوق ذراعه فالتفت ليري صديقة الصحفي فهتف:

- أهلاً سيد صبحي.

- ألم تهتدوا ما هو سبب هذا الحريق الهائل.

- دعك من التهكم واستمع الي مدير المستشفى يخبرك بقصة الطبيب المختفي في هذه المستشفى.

- بالتأكيد هذا الطبيب كان هنا اليوم.

- نعم. ان زوجته الدكتور غادة، هي من أكدت لنا هذا، فهي تبحث عنه أيضاً.

- أعتقد أنه لم يأتي بعد، أو ربما خرج قبل اندلاع النيران.

أخيراً حوصرت النيران في بقعة صغيرة ولكن أحد الأطباء لم يلبث أن اتجه الي مكتب الدكتور فتحي فوجده مفتوحاً ولم يكن به أحد ثم قال لصاحبة:

- ماذا تشم؟

- رائحة لحم بشري.

- يجب أن تخمد النار.

- لقد خمدت النار الباقية.

عاون الضباط في حث العمال على بذل كل ما في وسعهم من جهود واندفع رجال الاطفاء يستخلصون جثة آدمية من بين الحريق، ولمح الجميع الدكتور غادة وهي تحاول ان تفحص الجثة وهي تخشي أن تكون جثة زوجها الدكتور فتحي. وما لبثت أن اغتمت عندما وجدتها مفصولة الرأس، مشوهة مطموسة المعالم وأدركت أن التحقق من شخصيته صاحبها سيستغرق بضعة أيام أو قد ينتهي بعدم الجزم برأي قاطع يلقي الضوء على هذه الأحداث المروعة.

بعد أن نقلت الجثة الي غرفة بعيدة في المستشفى لم يبقي أمام الشرطة أن تعتبر هذه جثة الدكتور فتحي الذي كان هو المفقود الوحيد في هذا الحريق. وكأن الذي أشعل الحريق كان كل همة أن يحرق جثة ذلك الرجل بعد أن قتله في هذا المكان وكأنه أشعل النار هنا وهناك حتى وفق أخيراً الي بغيته وطمست النيران معالم القتيل والغريب أنهم عثروا

عليها في غرفة التحكم الخاصة بمفاتيح الكهرباء الرئيسية بالمستشفى وليست في مكتبه كما اعتقد البعض. ثم سأل الصحفي الشرطي:

- كيف وجدت هذه الجثة؟

- يبدوا أن القاتل أراد أن يخفيها تحت الطاولة في آخر غرفة التحكم هذه، لقد عثر عليها مغطاة.

- ولم يستدعي هذا انتباه أحد العاملين.

- ولما يلتجئ القاتل الي هذا الحريق الهائل إذا قتله وفر هارباً.

- أنا معك في أن الجريمة هذه غريبة حقاً.

- ولكن كيف له أن يخترق طريقه وهو ينقل الجثة؟

- صحيح، معك حقك ان المستشفى مليئة بالعاملين والأطباء. كيف له هذا؟

- قتله وحرقه أليس كان كافياً أن يقتله؟

- وكأنه شبح.

- أنا معك في أن ما حدث لا يقوم به الا شبح.

- أو مخلوقات آدمية متنكرة أرادت إرهاب الناس واقصائهم لغرض ما.

- هنا في المستشفى.

- أعتقد ذلك.

تسلل القمر بين السحب عندما اخترق رجال الشرطة نطاق البحث عن جريمة القتل هذه، الجريمة المزدوجة. كانت عملية شاقة لهم كي يعرفوا من قام بهذه الجريمة، من قتل ومن حرق؟ يبحثون في كل مكان وهم يتربصون ويترقبون في كل لحظة أن يفاجئهم ما يهدد أرواحهم وسرعان ما سعل أحد الجنود المرافقين لهم، ثم رفع ذراعه في الهواء وانكفأ على وجهه وكأنه أصيب بضربة قوية في صدره ولكن في لمح البصر سدد الضابط مسدسة الي الجهة التي انبعثت منها الضربة القوية التي اعتقد أنها اصابت الجندي وأطاحت به أرضاً. لكن الضابط أيقن أنه لم يكن أصاب الهدف وأنه توهم ذلك.

- هيا بنا ونرجع حينما يأتي المحقق، ويكفي أن نترك جنديين في حراسة الجثة.

- ان الطبيب الشرعي جاء لتفحصها الآن.

ذهب كبيرهم الي الطبيب الشرعي يسأله:

- ألا سبيل إلى التعرف على شخصيته؟

فهز الطبيب رأسه وأجاب: لقد أتت النيران على وجهه وعلي الراس المقطوعة كاملةً، بل وأطرافه ولم يبقي سوي فرصة واحدة هي فحص أسنانه وان كانت فرصة هزيلة.

*****

وفي مساء ذات اليوم حينما عادت الشرطة الي المستشفى ومعهم فريق البحث الجنائي لاستكمال التحقيقات في مسرح الجريمة اذ وجدوا فجأة اختفاء الجثة التي كانت في حراسة الجندين. تفاجئوا العاملين بالمستشفى والأطباء بوجود الدوريات الأمنية المكثفة، فقد هزت الجريمة كيانهم، وخيّم عليهم حزن لا يوصف على الرغم من التكهنات حول هوية الجاني.

دخل الضباط والمحققين ولدقيقة كاملة، حدق الكل في الحجرة الخالية والدم المسفوح المنتشر أرضاً في ذهول تام وصمت مطبق، ثم ما لبس الشرطي أن قطع هذا الصمت، وهو يهتف:

- يا إلهي، لقد اختفت الجثة تماماً.

- ما هذا؟ جريمة أكثر من أن تكون مزدوجة، قتل وحرق، ثم سرقة الجثة واختفاؤها!!

غمغم المحقق في ذهول.

- اين الجثة؟

أجاب الشرطي وحاول أن يقول شيئاً ولكنه عجز عن النطق وهو يلوح بسبابته مرة أخري، واتجهوا بأبصارهم الي حيث تنظر عيناه مرة أخي وبسرعة غريزية، لاحق الكل سبابته واتجهوا بأبصارهم الي حيث يشير وكان الشرطي أول من هتف وهو يرتد كالمصعوق:

- يا إلهي. من الذي فعل هذا بالجثة. سُرقت الجثة؟

أما الباقون، فقد انطلقت من حلقهم شهقة، كادت معها أفئدتهم أن تقفز خارج أجسادهم، وتم استدعاء مسؤول الشرطة، والذي عُنِف لاحقا لعدم كفاءة التحقيق. تنوعت النظريات بين الدهشة والزعر والتوتر بينهم.

- مستحيل لا يمكن أن يحدث هذا. من فعل هذا؟ ولو لم أري الجثة المحروقة وهذه الدماء المسفوحة ما صدقت أن هناك جريمة.

- هذه ليست جريمة اعتيادية.

- يصعب علينا ان نجد من يقتل ويقطع الألسنة ويمزق اللحم ويهشم العظام بهذا الشكل الوحشي ثم يحرقها!

- وهتف آخر وهو يلوح بيده، في شيء من الذعر:

- لم يحدث هذا في جريمة من قبل. ان الفاعل أراد الانتقام ليس من الضحية ولكن الانتقال من جهاز الشرطة والاستهانة به أيضاً.

قال الشرطي في عصبية:

- هناك سر غامض في هذه الجريمة.

- سأله المحقق:

- أي سر هذا؟

أجاب الشرطي في حزم:

- من فعلها جاء لسرقتها حتى لا يترك أي خيط لنا في هذه الجريمة.

- أتقصد أن من فعلها جاء مرة أخري وأنتم جميعاً بالمكان وسرق الجثة!

- انها كانت في حراسة هاذين الجندين. وهو يلوح بسبابته اليهما.

قال الشرطي متوتراً.

- لو جاء، لبقي له أثر او انتبها له الجندين، كيف له ان يدخل الي هنا ونحن فريق الأمن أمام الغرفة أيضاً وبالأسفل باقي الفريق من الضباط والجنود.

تساءل المحقق وهو يحدق في الغرفة.

- ربما لم ينتبه إليه أحد منكم.

هتف الشرطي:

- مستحيل

اقترب المحقق في حذر، قائلاً:

- وماذا لو أن .....

قبل أن يتم عبارته، تجمد جسده في مكانه بغته، واتسعت عيناه عن آخرها، وهو يحدق في الدماء المسفوحة التي بأرضية الغرفة فالتقي حاجباً الشرطي وهو يسأله:

- ماذا هناك؟

حاول الشرطي أن يقول شيئاً، ولكنه عجز النطق مرة ثانية، وهو يلوح بسبابته الي حيث تنظر عيناه... ثم قال:

- لا أعرف. كيف تختفي الجثة؟

- حتى لا يكون لها وجود في الحياة،

- لماذا؟ ان هناك من ينسون سريعاً.

سأل المحقق في حدة:

- ماذا أصاب الجثة؟ أين هي؟

- لقد أصبحت الجريمة أشبه بسر خفي.

التفت اليه المحقق بحركة حادة، قائلاً:

- ماذا تعني؟

- الأمر واضح للغاية يا فندم، ربما ما فعل هذا شبحاً.

ولكننا لا ندي بعد ما الذي فعل هذا أولاً ثم حرق وسرق الجثة.

- ان الجهات الأمنية سوف تكثف تحقيقاتها ونحاول ان نكشف ملابسات هذه الجريمة.

قد هزت الجريمة الغامضة المدينة واتضح أن هناك أحد وراء اشعال النيران، لأنه تبين أن الجثة قد قتلت قبل احتراقها، وقد تم استكمال الإجراءات النظامية للتحقيق في القضية، وقيدت الجريمة ضد مجهول فلم يتم الوصول للجاني مرتكب الجريمة، وقد ضمت الي قضايا وجرائم القتل العديدة التي لم يتم فيها الكشف عن الجاني في ظروف غامضة.

*****

الفصل الثامن

الضريح

في مساء أحد الأيام، جلست هند في غرفتها وكانت ملامحها تكشف عن شرود ذهنها وكأنها كانت تستعيد شريطاً نابضاً بالحياة والألم. وتتذكر الأحداث الأليمة التي تمر بها وتلحق الضرر بكل من حولها، تتذكر حينما فاتحها الدكتور فتحي بموضوع الزواج منها، وكانت تتهرب من الموضوع متحججة بزميلتها وزوجته الدكتورة غادة، فهي لم تكن تحب الدكتور فتحي ولكنها كانت تستلطفه فقط.

تتذكر أنها حينما تزوجت عوني عرفت أفراح الشيطان، على الرغم من أن العلاقة كانت طيبة بينهما أول الأمر ثم صار يعاملها معاملة سيئة وينهال عليها بالضرب أحياناً، ولكنها تعودت على ذلك. وهمست في نفسها لماذا ابتعد عني وغاب هكذا؟ ربما لأنه أراد مني شيئاً وبعد أن حصل علية اختفي؟ لقد اختفي فجأة!

تتذكر عرسها وليلة زفافها، فقد كان عرساً متواضعاً. فقد احتفلا في إحدى المطاعم، ثم انتقلا إلى شقتهما. وظلت شقتها في بيت ابيها فارغةً. فهي لن تنسي تلك الأيام. فكانت مشكلتها معه أنه كان شبح في ظل إنسان، كان وسيماً قوي

البنية، لكنه كان غامضاً، وكأن هناك شخصية شيطانية طغت عليه فجأة وحينها بدأت تشعر بالإحباط من حياتها وعلاقته الغامضة بها. وهذا ما ترك تأثيراً سيئاً جداً عليها، وكأنها سقطت في بئر مظلم.

*****

في مساء اليوم التالي تم ابلاغ الدكتورة هند بعنوان زوجها المهندس عوني، قريته القديمة التي نشأ بها وذلك حسب بياناته الأولية وكانت مفاجأة لها من العيار الثقيل حينما قال لها الضابط أن هذا الشخص توفي منذ عشر سنوات فكيف كان لك الزواج منك كما تقولي، أنه مات منذ أكثر من عامين؟ وقال لها أنه تحري الدقة بعد أن تم إسناد هذه المهمة اليه وبعد أن بدأ تحرياته الدقيقة في دأب وصمت.

*****

في صباح اليوم التالي، في محطة القطار وهي في طريقها للذهاب الي القرية التي نشأ بها زوجها عوني حسب تحريات الشرطة الدقيقة. في القطار كانت قد حجزت لنفسها في الدرجة الأولي حتى تنعم بالهدوء ومقعد مريح والجلوس في ضوء صحي حتى تنعم بالقراءة أيضاً، بدأ القطار في تجهيز نفسه بالانطلاق والمتجه الي مدينة السويس وأخذ بعض رواد

القطار من الجنود التوجه إلى القطار مسرعين، كما توجه بعض الطلاب وبعض السيدات وكانت السيدات الجالسات إلى المقاعد الأمامية تدعوها إلى الجلوس بجانبهن.

قامت هند متجهةً نحو امرأة شقراء تجالس امرأة كهلةً. وكانت المرأة تتلفت وكأنما تنتظر أحد ما أو ان تبحث عن أحد. حين وصلت إليهما انحنت بإيماءة من رأسها بطريقة مهذبة متوجةً للمرأة الكهلة مستأذنةً في الجلوس بجوارهن، إلّا أن المرأة الشقراء قامت كي تجلس هي على راحتها قبل أن تنتبه السيدة الكهلة أو تشير بالموافقة لها.

نظرت هند إلى السيدة الكهلة المجهولة في اللحظة التي نظرت هي فيها إليها أيضاً فالتقت نظراتهما مرة أخرى. كل منهما شعر بالخوف من الآخر، لكن في الوقت نفسه أكد اهتمام كل منهما بالجلوس بجوار بعضهن في نفس المقعد.

راودتها رغبة قوية في الحديث معها، لكنها كان مترددةً. كانت تصارع في نفسها في القيام بهذه الخطوة، وفي اللحظة التي حسمت أمرها وقررت أن تتحدث معها جاءت المرأة التي كانت تجالسها من قبل، نهضت الدكتورة هند من مقعدها ثم اتجهت إلى الجلوس في المكان المقابل لهما، وبينما كانت الدكتورة هند متجهة الي الجلوس في المقعد المقابل لهما

نظرت المرأة المجهولة إلى هند نظرة يمتزج فيها الاستفسار والدهشة في الوقت نفسه، وكأنها تود أن تسألها لماذا لم تسألني عن العنوان الذي سوف تتجهين إليه.

ظلت الدكتورة هند في مكانها تتابعها بعينيها، وكانت هي أيضاً بين لحظة وأخرى تنظر إليها من وراء المقعد كلما استدارت وصارت في مواجهتها. حين جاءت سيدة أخري إلى الجلوس بجوارها وعلى نفس المقعد ورأتها هند وحدها سألتها السيدة مستغربةً:

ـ لماذا تجلسي خائفةً هكذا؟ لماذا تسافرين وحدك؟

فأجابت بغضب مكتوم مداريةً خوفها:

ـ أنا لست خائفة، بل وأحب السفر وحدي دائماً، قد يشعر بعض الناس بالمتعة أكثر في سفرهم بمفردهم مما لو كانوا في جماعات.

بدأ القطار السير ببطيء حتى يتوقف في محطته الأولي. مالت المرأة الشابة التي ترافق المرأة الكهلة المجهولة وقالت لها شيئاً لم تسمعها الدكتورة هند، لكنها انتبهت من هزة رأسها بالإيجاب. ولاحظت أنهما أخذا يتحدثان بكلمات مقتضبة. وليس حديثاً سلساً، ثم فجأة قامت جالستها متجهةً

إلى جهة الحمامات، كانت هند تنظر إليها بخوف وهلع واضح، وكانت السيدة الكهلة المجهولة هي منتبهة لها أيضا.

عادت المرأة المرافقة للمرأة الكهلة المجهولة، قامت الدكتورة هند وخرجت من بين المقعدين متجهة الي الحمام بعد أن اجتازت الممر الطويل للقطار. وحينما وصلت الي الحمام، دخلت وكأنها تهرب من شيء يطارده.

خرجت من الحمام واتجهت إلى مقعدها وجلست وهي متعبةً، كانت حانقةً من نفسها. نظرت إلى خارج نافذة القطار، ثم إلى المنضدة التي كانت أمامها، فرأى روايتها التي تود قراءتها فمدت يدها وأخذتها. تتصفح الكتاب وبدأت بالقراءة في أول فصل للرواية. انتقلت إلى فصل آخري فكانت روايتها تحمل اسم (الليلة المظلمة) لمؤلف جديد غريب الفكر. الرواية تبدوا كأنها رواية رعب، وهي تطالع القصة، عادت الي الفصل الأول وبدأت تندمج.

- ما هذا؟

لمحت هند شيئاً غريباً في داخل الكتاب ورقة قديمة حمراء فاقع لونها، مدة يدها وبصعوبة وبدقة فتحتها كان الفضول قاتلاً، كان الفضول يغمرها، أنها خريطة لعنوان يبدوا أنه نفس العنوان للمكان الذي نشأ فيه زوجها عوني، وكتب عليها

في بداية الصفحة عبارات بلغة لا تعرفها، ربما هي سريالية لغة لابد أنها من بلاد ما بين النهرين أو قادمة من كوكب آخر، وتقول في نفسها: ما هذا، لابد أنه خيال، لابد انني متعبه، لابد أن ارهاق السفر هو السبب.

دست هند الورقة في جيبها وعادت تقرأ.

مر المحصل وطلب التذكرة من الدكتورة هند ولم يطلب التذكرة من المرأة الكهلة المجهولة ورفيقتها كأنه لا يراهما. عادت هند تقرأ الرواية. وبدأت تتوتر من الأحداث التي تشدها، ماذا سيحدث لذلك البطل المرهق الوحيد الذي بروايتها؟

قالت هند لنفسها ان القصة ممتعة فعلاً، لكنها تحتاج الي شجاعة كي أقرأها في البيت وحدي. رأت هند المرأة الكهلة المجهولة التي كانت جالسةً أمامها، يبدوا أنها تبحث عن حقيبة وضعتها على الرف فوق المقعد، لكنها سقطت منها على الأرض مفتوحة وانحنت تجمعها وقامت الدكتورة هند لمساعدتها هي ومرافقتها، وجهت المرأة عبارات الشكر الي هند وهي تحمل حقيبتها، وجلست هند لاهثة، وطلبت من أحد المارة البائعين كوباً من القهوة، ثم واصلت القراءة. ثم تساءلت في نفسها: هل هذه المرأة الكهلة المجهولة التي

تجلس أمامي تراقبني؟ إنها واثقة من نفسها، قوية الشخصية رغم كهولتها، لكن فيها شيء مخيف بلا شك.

وصل القطار الي المحطة الأخيرة، أين ذهبت المرأة المجهولة المخيفة ومرافقتها اللتان كانتا تختلسان النظر إليها، غادرت هند القطار، أين تذهب؟ في الخارج كان البرد، لا توجد سيارات أجرة، سوف تذهب الي محطة أخري للباصات كي تذهب الي المكان التي تريده، وتقول في نفسها: أنه يوم فيه مهمة شاقة جداً، ولكن لا يهم سوف ينتظرني إجابات ساحرة عما أريد معرفته.

*****

لم تفهم هي نفسها ما الذي يجري بداخله من خوف وذعر منذ لحظة رؤيتها لهاتين السيدتين الغامضتين. لم تفهم لماذا غادروا فجأة القطار؟ لماذا غضبة كل هذا الغضب حينما وقعت الحقيبة من يدها؟ كان عليها هي أن تتحدث معها ولكنها خافت من غموضها، فلماذا لم تفعل هي ذلك؟ فهي كانت تختلس النظر اليها كثيراً؟ ثم لِمَ كل هذه الانفعالات التي اجتاحتها؟ هل هذه الحقيبة بها شيئاً ضرورياً؟ مَن كانا هما يا تُرى؟ ومَن هي هذه السيدة الشابة التي معها؟ ثم ما الذي تريده هي منها؟ هل تراقبها؟ هل ترغب معرفة ما تبحث هي

عنه؟ لا. لم يطرأ في ذهنها ونفسها شيء من هذا على ما أعتقد. وبرغم ذلك لم تتوصل إلى السبب الواضح الذي يشدها إلى هذه السيدة الكهلة المجهولة.

فجأة بدأ على وجهها وكأنها اتخذت قراراً فيما أرادت البحث عنه. وبنشاط نظرت نظرة خاطفة وسريعة إلى أرجاء المكان، استوقفت سيارة أجرة لتذهب الي عائلة عوني، الآن هي في مدينة السويس، وهي كما تظن قريته، همست في نفسها يجب أن أغادر المكان لأعود قبل الظلام الي القاهرة.

كان صباح هذا اليوم ممطراً أكثر مما قبله، فما إن استرد المطر أنفاسه خلال ساعات الظهيرة، حتى بدأ ينهمر بعنف مرة ثانية حتى العصر توقفت هند وعندما وصلت توقفت عند أحد بيت عائلة عوني، لم تجد أحداً بالبيت اتجهت الي البيت المجاور فهو لأحد بيوت عائلة عوني وجيرانهم في نفس الوقت. توجهت بنظره إلى البيت الذي كان يسكن به ثانية فلم تجد أحد بعد. نظرت إلى أحد السيدات المارة من الشارع فوجدتها تشبهان المرآتان اللتان كانتا تجلسان بجوارها في القطار. همست في نفسها وفي خوف ها المرأة المجهولة ومرافقتها.

*****

تحت بيت عائلة عوني، رنت الدكتورة هند الجرس وانتظرت برهة حتى فتح لها الباب سيدة في بداية العقد الخامس من عمرها، وكان وجهها تعباً وحزيناً لكنها كانت بشوشةً لدرجة شجعت هند على أن تشد على يديها طويلاً قبل أن تدلف للداخل. كانت السيدة مازالت تحتفظ ببريق جمالها رغم الحزن الدفين الذي اختزنته تقاسيم وجهها. فها هي الدكتورة هند قد أصبحت على بعد خطوة من حل اللغز الذي ابقاها ساهرةً معظم الليل ومتعبة خلال الأيام السابقة.

-أنا.....

- تفضلي. اهلاً وسهلاً.

- من انت؟

- أنا الدكتورة هند. زوجت المهندس عوني جاركم في هذا البيت.

- زوجته! زوجت من؟

- المهندس عوني.

- تفضلي يا دكتوره. فرصة سعيدة حقاً.

جلست هند بشيء من الثقة، بينما كانت مضيفتها تنادي زوجها.

- تعالي يا أبو ياسين وسلم على ضيفتنا العزيزة، ستكون مفاجأة لك.

مفاجأة!

- ألا يوجد أحد هنا من عائلة عوني.

- بلي.

- ربما أنهم...

دخل أبو ياسين الى الصالون. مازال يحتفظ ببريق في وجهه أيضاً. وكان وجهه الأبيض يوحي بالطيبة والوقار رغم كبر سنه، سلم عليها.

نظرت اليه أم ياسين، ثم قالت:

- الدكتورة هند، جاءت لتسأل عن ابن أخيك عوني.

-أهلا يا دكتوره هند. تفضلي بالجلوس.

-أهلا، شكراً لك.

ثم رفعت وجهها مخاطبةً زوج السيدة.

-شكراً لهذه الحفاوة البالغة. في الواقع سيد أبو ياسين

- نعم.

- أعلم أنكم لم تتوقعوا زيارتي، لا أحد بالطبع أخبركم بأنني قادمة؟ أنا زوجت المهندس عوني.

نظر الزوجان لبعضهما غير مصدقين، فمن تتحدث لا يبدو عليها الجنون. بل لا يمكن الشك بكلامها، فهي شخصية مرموقة علمياً أنها طبيبة. لها بالحكمة والعقل الراجح.

-أنت متأكدة مما تقولي يا دكتوره؟

- حسنا. يبدو أنه أخفي عن عائلته شيئا ما. في الواقع لقد كان غامضاً منذ عرفته وتزوجنا لأكثر من عامين.

صمتا الزوجان. وهمس أبو ياسين في نفسه وقال: أعتقد أنها تعاني من شيء في سرد ذكرياتها وقال:

- تقولين عرفتيه منذ عامين؟

- نعم.

لكنها كانت مصرة على أن تحكي قصتها وبرغبة شديدة. فواصلت:

- وكانت حياتي معه في حالة لا يرثى لها، وقد وعدني من قبل بزيارة كهذه لكم ولكنه كان مشغولاً على الدوام في عمله.

صمتت الدكتورة هند للحظات وكأنها تستدرج ذكريات من خزين ذاكرتها لترويها لهما، وبعد لحظات واصلت:

- أعلم أنه لم يتحدث معكما في شيء؟ أقصد لأنه كان مقيماً في القاهرة.

يبدو أن الزوجان كانا في حالة من الذهول لم يتمكنا معها من سماع الدكتورة هند، وأسئلتها المندفعة من فمها كالرشاش. فقال لها أبو ياسين:

- يا دكتورة هند. هل أنت متأكدة مما تقولين؟

- وهل تظن يا سيد أبو ياسين بأن سني ومركزي الاجتماعي، يسمح لي بالعبث واختلاق قصة كهذه.

- ما تتحدثين عنه هو ابن أخي فعلاً عوني نعمان، لكنه توفي هو والأسرة كاملةً منذ تسع سنوات في حادثٍ أليم.

- يا أبا ياسين، يا أم ياسين. هل تظنون أني خرفت حتى أحكي لكم قصة عن رجل توفي منذ تسع سنوات؟ أقول لكم، انه زوجي. وكان مهندساً. وتزوجنا منذ أكثر من عامين ثم

فوجئت باختفائه حينما كنت مريضة بأحد مستشفيات مدينة الإسكندرية.

جحظت عينا أبو ياسين قليلا. ثم عاد وجهه إلى اتزانه السابق وفتح فمه ببطيء، محاولاً شرح شيء وفهم أشياء أخرى.

- قلتي أنكما تزوجتما منذ أكثر من عامين.

- نعم.

- اسمه عوني وهذا صحيح ولكنه لم يعمل مهندساً أنه كان يعمل محامياً.

- محامي!

- نعم.

- ولكن متي كان هذا الزواج؟

- منذ عامين وأربعة أشهر بالضبط.

- الأموات يتزوجون يا دكتوره؟! بالله عليك، اعذريني فأنا لا أشك في روايتك، ولكن نحن أيضا لسنا مجانين حتى نصدق بأن ابن أخي المتوفاة منذ تسع سنين، تزوجك. متى؟ وكيف؟

- ممكن أن أري صورة للمرحوم ابن أخيك؟

نطقتها الدكتورة هند برتابة:

نظر اليها أبو ياسين، قائلاً:

- حسنا، أود فعل شيء من أجلك منذ قدومك. لحظة سوف أحضر لك ألبوم الصور الخاصة ببعض أفراد عائلتنا.

أحضر أبو ياسين ألبوم الصور وأشار إلى صورة على يسار الصفحة وقال لها:

- أنظري جيداً.

- آووه. ها هو يا أبو ياسين.

- نعم. كما قلت لك إنه توفي منذ تسع سنوات، ولو تحبي أن أصحبك الى مدافن العائلة الآن وأريك قبره.

صدمت الدكتورة هند من هول ما تسمع بعد أن توقعت أنها قريبة من الحقيقة. واصل هو فقال:

- أما زواجك هذا لا أدري كيف؟ فلا أظنك الآن يهمك معرفة ما آل إليه مصيره قبل أن نجد شيئا ينقذنا من حيرتنا الآن. يبدو أنني أشد رغبة منك الآن في رؤية ابن أخي للوصول إلى نهاية لهذه القصة التي لا يصدقها عقل.

كانت أم ياسين وأثناء حديث زوجها مع الدكتورة هند أشبه بأحد التماثيل ثم بدأت تتحدث مع الدكتورة هند.

صمت أبو ياسين قليلاً، وكأنه مهددٌ بالانهيار في أي لحظة، ثم وقال:

- آه. أما آن الأوان لهذه الذكرى أن تندثر، ولهذا الوجع أن يستكين؟ قلبي احترق حزناً عليكِ يا أخي أنت وزوجتك وأبنائكما عوني وشاهين، وما ينبض في جسدي المنهك الآن هو ألم الفراق وبشاعة الموت. لقد كبرتُ عشرين عاما في يوم واحد. يومٌ لم أشهد سواداً أكثر من منه، تسع سنين في تسعين سنة، عاهدت نفسي ألا أنساكم أبداً، وأن أدعو الله لكم بالرحمة، وأشعر أنني لا أعيش بعد موتكم؟ لم يكن أحد من زوار المدفن يخرج منه قبل أن يمر على قبركم. كانوا يعلمون كم كنتم تحبون الناس، وتحبون الخير لهم، وكان الناس يشعرون بأن الملائكة تجتمع كل يوم فوق قبوركم.

- ماذا حدث لهم؟

- سوف أحكي لك القصة كلها كانت ليلة شتوية باردة، والليل قد قارب منتصفه، وكل الناس في بيوتها نائمة، ما عدا عوني وأثنين من أصدقائه كانوا يسهرون في منطقة بالقرب من

ضريح أحد الأولياء، فخطرت لأحدهم فكرة مرعبة، حين همس لهم وقال:

- ما رأيكم أن ننبش ضريح هذا الرجل الولي الذي مات منذ سنوات لنتأكد من مصيره حقاً؟

- يقولون إن الأولياء والشهداء جثثهم لا تحلل حتى لو مر عليها سنوات.

- صحيح، لكن لا يجوز فتح القبور.

- ومن قال إنه كان ولي، لقد سمعت أنه كان لا يصلي.

- الذي لا يصلي يكون محروقاً في قبره.

- هذه فرصة لنتأكد.

عارضهم عوني بشدة وانتقد فكرتهما البشعة، فللأموات سر وخصوصية ما داموا في ذمة الله. لكن صديقة الآخر أعجبته الفكرة وقد وافقه على ذلك. أخذوا معدات الحفر من المزرعة المجاورة للضريح وتوجهوا إليه، بينما عوني توجه إلى بيته، بعد أن أخذوا منه عهداً ألا يخبر أحداً وقد عاهدهما.

وضع عوني رأسه على الوسادة وهو يفكر ماذا سيخبرونه في الصباح، هل سيكون جسد ذلك الولي محروقاً فعلاً أم لم

تتحلل جثته؟ ثم نام. وفي الصباح استيقظ عوني على صوت أمه وهي توقظه وتقول له:

- والدة صديقك هشام في الأسفل تريد أن تسألك عن ابنها فهو لم يعد إلى البيت البارحة.

- تركته أمس مع حمدي.

ثم بعد ساعة جاءت أم صديقه اياد تسأل عن ابنها فهو أيضاً غائب منذ ليلة البارحة.

قارب وقت الضحى ولم يظهرا بعد. وعند الظهيرة ذهب عوني إلى الضريح ونظر إليه وكان على طبيعته فلم تظهر عليه علامات النبش.

مرت ثلاثة أيام والقرية لا كلام لها إلا قصة اختفاء الشابين هشام وحمدي، وكان عوني صامتاً ومحافظاً على العهد الذي قطعه لهما، لكن في اليوم الرابع أخبر إمام المسجد بما عزم عليه أصدقاءه من حفرهم للضريح، وأخبره أنه لا يعرف هل قاما بما عزما عليهما أو لا، فقال الإمام لابد من نبش الضريح والتأكد منه، اختار الإمام عدداً من الرجال الثقة ولم يذهب معهم عوني، وذهبوا ليلاً وبالسر إلى الضريح، وبدأوا بنبش ترابه.

ثم بعد ساعات من الليل وحينما جاء موعد صلاة الفجر، وكنا جميعنا داخل المسجد، بدأ الناس يسألون عن الامام، وكان عوني بيننا داخل المسجد. همس عوني في نفسه وتعجب: الامام والرجلان غائبين أيضاً منذ ليلة البارحة.

علت وجوه الحاضرين الدهشة وملامحهم الصامتة تسأل بعضهم بعضاً أين الامام واين الحاج محمود والحاج سعيد، وأين الشابين هشام وحمدي، وفجأة كسر أحدهم الصمت قائلاً:

- لا بد أن هناك سراً علينا معرفته.

صمت عوني للحظة ثم صاح قائلاً:

- أنا سأخبركم بكل شيء.

صمت أبو ياسين للحظة وجحظت عينا الدكتورة هند قليلاً، ثم عاد وجهها إلى اتزانه السابق. واصل أبو ياسين محاولاً شرح ما حدث قائلاً:

- في الساعات الأولى من الصباح وقبل شروق الشمس أفاقت الناس على صراخ من ناحية بيت اخي، فهرعتُ أنا والناس إلى البيت وتفاجئ بأن أخي وزوجته وأبناءهما عوني وشاهين يرقدون جميعهم جثثاً على فراشهم أجساداً بلا

رؤوس، وكأن أحد تسلل إلى بيتهم تحت جنح الليل وقبل الشروق وجزّ عنقهم وهم نائمون.

نظرت هند إليه بتركيز وخوف فجأة جحظت عيناها وكأنها تعرف منذ سنوات تلك الجرائم البشعة، ثم واصل أبو ياسين وقال:

- وبعد ساعة اختفت رؤوسهم جميعاً. وفي الصباح شاهدنا رؤوسهم معلقةً على وتد مغروس فوق هذا الضريح.

صمت أبو ياسين للحظات وكأن سحابة حزن مرة علية، ثم واصل قائلاً:

- بدأ الناس يتحدثون عن رؤيتهم لشبح فضي يهيم ليلاً في طرقات القرية، وغالباً ما يحمل رؤوساً مقطوعة. تملك الرعب قلوب الناس وباتوا يغلقون على أنفسهم أبواب بيوتهم في الساعات الأولى من الليل، ثم اختفي هذا الشبح عنا ولم نسمع عنه شيئاً بعد ذلك.

صمتت أبو ياسين للحظة ثم نظرت هند إليه مستغربةً وشعر بالخوف من هذه القصة الغريبة، وتساءلت قائلةً:

- هل عرفتم من فعل هذا؟
- لا.

فجأة وجدت هند نفسها تنهار على الأريكة باكيةً. وأخذت أم ياسين وزوجها يبكون. ضمت أم ياسين هند إلى صدرها. كانت تبكي كالطفلة، وكانت هي أيضا تبكي بحرقة وألم. كانت هند تبكي شفقةً على حالتها وعلى نفسها، تبكي على الضحايا وطريقة الموت البشعة، تبكي على عوني الحقيقي الإنسان البريء والضحية والتي تأكد لها بأن هناك جني تشكل لها في صورة هذا البريء ليتزوجها. كانت تبكي بحرقة وصدق كأي امرأة تفقد الاستقرار النفسي في حياتها. تتذكر باطن هذا الجني الذي تزوجته كيف لها ان تتزوج شبحاً عاش معها في صورة شاب برئ.

كان عوني الحقيقي ضحية لأنوار الحق، شاباً كانت أفكاره وقناعاته تتصف بسلامة العقيدة، لم يرتكب خلقاً ذميماً، كان يتصف بالحياء، بالزهد، بالكرم، بالعدل، بالصدق، بالأمانة، كان صبوراً ومتواضعاً.

ظل أبو ياسين برغم مصيبتها وبكائها ينظر إليها مستغرباً كل هذا الألم التي تشعر به.

*****

حينما غادرت الدكتورة هند بيت أبو ياسين بلحظات سمع الجيران صراخ من البيت، فهرعت الناس إلى البيت الذي

يأتي منه الصراخ ليفاجئوا بأن أبو ياسين وزوجته يرقدان جثتان على الأرض، جسدان بلا رأس.

الفصل التاسع

الروح والجسد

في محطة القطار وهي في طريق الرجوع بعد أن تمت مقابلة عائلة عوني والاستماع إليهم. دخلت إلى السوبرماركت الكبير الموجود في المحطة لشراء زجاجة مياه، وحينما مرت في القسم الذي يحوي على مواد التجميل وبعض أدوات الزينة، أحست وكأن وميضا أنار ذاكرتها، إذ انتبهت إلى قضية هي بشارة للوصول الي الحقيقة وكارثة في الوقت نفسه.

انتبهت إلى أنها كانت تملك أغراضاً في حقيبة جلدية سوداء كانت في يدها حينما أغشي عليها ومن الممكن أن تكون قد احتفظوا بها في أمانات مستشفى الحضرة بمدينة الإسكندرية حينما دخلت وهي في ظروف مرضية سيئة. ركبت القطار واتجهت الي مدينة الاسكندرية، وحينما وصلت، دخلت الي إدارة المستشفى وسألت أحد العاملين عن مكان غرف الأمانات، وأوضحت له ظروفها المرضية السابقة، فأشار بسبابته الي أحد الأماكن، دخلت غرفة ليس بها شيء الا من بعض الخزانات الخشبية وموظف الأمانات، استلمت حقبتها الجلدية، واتجهت الي غرفة ليس بها شيء الا من سرير

حديدي، فتحت حقيبتها فوجدت بها بطاقتها القديمة وخاتم متحجر ودنانير من المال، همسة في نفسها وهي مصدومةً: لم أتوقع أن أجد شيء من أغراضي هذه. مما جعلها تتأكد أكثر من أن ما هي فيه ليس وهماً.

******

كانت الدكتورة هند حانقةً مندهشةً، بدأت بفرك الخاتم وفجأة ظهر لها زوجها الجني عوني وصاح أمامهاً مقهقها، لم تستطع هند أن تتحمل الصدمة هذه إذ قامت فجأة وخرجت من الغرفة. نهض خلفها، لم تشأ أن تهرب فقد لحق بها، وقد أغمي عليها، حملها وعاد بها الي الغرفة ثم ووضعها على السرير في الغرفة التي كانت شبه فارغة إلا من السرير التي ترقد عليه. أفاقت هند فانتبهت إلى أن إحدى قدميها مقيدة بالسرير، لذا لم تستطع أن تحرك جسمها ولا أن تجلس بشكل طبيعي أو أن تحرك يدها بحرية، ولهذا الكّم الهائل من المعاناة الذي كان يتجسد في نبرة صوتها وملامحها حينما كانت تعترف له بأنها عرفت كل شيء.

وظلت هي مذهولة من هول ما مر بها من أحداث مفزعة. إنها رحلة عبر الجحيم الأرضي، جحيم النفس التائهة. لا

تعرف كيف تنظر إلى هذا الجني، هل هي مجنونة فاسقة أم أنها قديسة تتطهر بنار الجحيم؟

فجأة ابتسم لها الجني عوني ساخراً، وسألها:

- أنا أعتذر جداً عن اختفائي المفاجئ دونما أي إشارة أو ترك أي أثر لي، لكني كنتُ مضطر لذلك. ولكن قبل أن أتركك لي سؤال:

صمتت هند وفجأة، نظر هو إليها نظرةً متسائلاً وقال:

- لماذا تبحثي عن شخصيتي ولا تبحثي في حياتك أنت، أوليس أنت التي صنعت شخصيتك؟

نظرت اليه في محاولة منها ان تخفي خوفها أمامه، ثم قالت:

- مشكلتي معك أنك عشت معي ولكنك شبح تشكل لي في ظل إنسان، فعلى الرغم من أنك ظهرت لي في صورة شاب وسيم قوي البنية، لكنك بلا شخصية، إذ طغت عليك شخصية أميرك الذي تجاوز الحق، تعتقد أنك شاب وسيم، قوي البنيان، وما الفائدة إذا كنت ضعيف الشخصية تعيش بأمر الجن، بأمر من ملوك الجن. لم يكن لديك يوماً أي رأي أو وجهة نظر خاصة، لأنك نتاج اتفاق بين الساحر والشيطان، أو بأمر من زعيمكم أو سفيه من سفهاء قبيلتكم، وحتى إن

كانت لديك وجهة نظر فإنك لم تكن تعترض أو حتى تكشف عنها وتبدي رأيك.

صمتت للحظة، ثم نظرت إليه بتفحص وكأنها تقرأ ما يدور في ذهنه، ثم سألته بهدوء:

- أود أن أعترف، ماذا تريد مني؟

نظر اليها بتفحص ثم قال لها:

- قبل أن أقول لك ماذا أريد منك، أريد أن تواصلي كلامك:

نظرت إليه وهي غير مرتبكة وقالت وفي صوتها شجاعة واضحة:

- أريد أن أقول لك الآن، انني عرفت الحقيقة كاملةً، عرفت عوني الحقيقي الإنسان البريء والضحية والتي تأكد لي بأنك أنت الجني الذي تشكل لي في صورته، تشكلت لي بهذا البريء لتتزوجني. أنت شبحاً عشت معك في صورة شاب وسيم، برئ.

صمتت للحظة ثم واصلت:

- ان عوني الحقيقي كان ضحية لأنوار الحق والسلام، شاباً كانت أفكاره وقناعاته تتصف بسلامة العقيدة، كان يؤمن

بالدين الذي جاء به النبي محمد بن عبد الله، والذي ختم الله به الرسالات السماوية. كان يهتم برعاية مصالح الناس كلها وكان يدفع عنهم المفاسد، لم يرتكب خلقاً ذميماً، لم يكن له ضحايا ممن ماتوا بأبشع طرق الموت. كان يتصف بالحياء، بالزهد، بالكرم، بالعدل، بالصدق، بالأمانة، بل كان صبوراً ومتواضعاً، دينه هو الحق أما أنت فدينك هو الباطل.

-ولكن أريد أن أقول لك شيئاً:

صمت للحظات. نظرت هي نحوه لترى ما يريد أن يقوله، إلّا أنه كان ينظر إليها بذهول فهي لا يبدوا عليها الخوف فواصل قائلاً:

- لقد أصبحت عديمة الفائدة. لقد خسرت كل شيء.

صمت للحظة فنظرت هي إليه وابتسمت ابتسامةً ساخرةً. تلك الابتسامة التي تمنحها تعبيراً عن الاستهزاء بما يقول، فواصل هو قائلاً:

- أردت أن أخبرك بشيء واحد وهو أن جسدك هو فقط الذي هنا في هذه المدينة! ولكن عقلك لا يزال معي وبالطبع كل من سيتكلم معك هناك سيعتقد أنك مجنون.

- جسدي هنا بدون عقل؟!

صمتت للحظات وكأنها تستدرج ذكرياتها القديمة من خزين الذاكرة الملوثة لها معه. ثم تساءلت وقالت بنبرة جادة:

- كيف هذا؟! لم أصدق أن في أعماقي هذه الانقسامات! وعلى كل، فإن كل شيء في الكون يتكون من جزئيين، قد تعتقد أني إنسانة محطمة وضعيفة من الداخل، فهذا غير صحيح. أما شراستك التي تراها قوة وشجاعة هي محاولة يائسة منك للدفاع عن نفسك من الآخرين الذين يحبون عالمي وشخصيتي.

نظر عوني الجني إليها بتركيز في لحظات، فرأي تحولات سريعة من الغضب في محجر عينيها وكأنها ليست هي، ثم قال لها:

- ان حياتك بأكملها ملكي. من قبل أن يُحكم عليّ بالنفي كعقوبة فأُلقي بي إلى بئر الشياطين. سُجنت في أعماقه. وهذه الأرض كانت ملكي قبل ملايين السنين، ثم انحسرت فصارت أراضين وقسمها الإنس كيفما شاء، وحينما تركتها سكنتها الذئاب، ثم جاء الإنس مرة أخري ليعمرها، وما أن عمرت ببني الإنس حتى تم إطلاق سراحي، لكني صرت أعود إلى هنا كل عشر سنوات.

بُهتت هند من هذه المعلومات! فصمت هو للحظة كان يتوقع أن تعلق هند بشيء على ما قاله فانتظر للحظة وحينما لم تقل شيئاَ واصل حديثه بنبرة حادة:

- في المرة السابقة كانت هنا خيمة لقبيلة الكنعانيون يرأسها حكيم الزمان. ورغم أني أنهيت فترة عقوبتي وعدت إلى موطني في الجبل الأحمر، الا أن بها أمم مطلوب منا إبادتها، وسوف يأتي يوم ويتم وصفهم بأنهم امم أهلكها الجن، إلا أني أزور هذه الأماكن مرة كل عشر سنوات كما قلت لك. هذه المرة أنت هنا، لا تخافي، لا أريد أن ألحق الأذى بك، لكن لا تخبري أحداً بوجودي، من الآن أنت وحدك التي ستريننني، سأكون هنا معك وحدك، في هذا المكان وفي أي مكان ستذهبين، هل فهمت؟

شعرت هند حينها بالخوف فتمتمت واستدارت وجهها عنه وقالت:

- فهمت. فهمت.

وأخذ هو يتأملها، ثم سمعت صوتاً صادراً منه.

- أنت ما زلتي زوجتي الجميلة. لقد أحببتك حقاً وأريدك لي دائماً.

فتمتمت هند مرعوبة:

- أنا لست زوجتك.

- أعرف أنك كنت تعتقدين من قبل أنك قد تزوجت من هذا الذي يدعي عوني، لكنك لا تستطيعي ان تنكري أنك أحببتني، حتى لو كنت أنا المخلوق من النار، لكن أنا عوني نعمان وأنت لي أنا.

كانت هند تفكر مع نفسها بأن ما يجري مجرد تخيلات تمر في حياتها، لذا شعرت بشيء من الجرأة مرة أخري في الحوار والمغامرة معه، فقالت بصوت مرتفع:

- أنا إنسانة وأنت مخلوق شيطاني غريب لا أعرف كيف أسمّيك، ولا يمكن باي حال أن أكون زوجتك، فماذا تريد مني؟

تحول وجهه وتشكل في هيئات كثيرة ومخيفة. ثم سرعان ما امتد للأمام كما كان قريبا منها، وقال بالنبرة الآلية نفسها:

- أنتم تطلقون علينا أسماء لا نفهمها، لكن على كل حال لسنا من لحم ودم مثلكم يستطيع أي ذئب أن يهشم عظامنا، ولسنا مقيدين بقوانينكم وبرغم ذلك تعتقدون أنكم أفضل وأشرف وأعظم منا في هذا الكون.

- نعم نحن أشرف وأعظم منكم، نحن ننظر إليكم وأنتم تتخبطون في قاع الأرض، في الشقاء الأرضي، نراكم تعيشون في المستعمرات ومدنها ومماليكها وفي الماء، فوق سطحها وفي أعماقها وتنتشرون أكثر في الصحاري والأماكن الخالية والجبال المرتفعة والكهوف والمغارات، تحاولون تحطيم الدين وإذلال الناس ونحن نراكم تلهثون وراء الشهوة والسلطة، والمال وراء الذهب والنفوذ، تهربون من أنفسكم، تذهبون طائعين إلى عبودية المال والسلطة وأصحاب العلم الذي تستخدمونه في تحقيق أهداف غير نافعة وتضر بنا. أنتم منافقون، كلكم تتحدثون عن الخلاص لكنكم لستم صادقين لأنكم تتاجرون بكلامكم، لتبنوا سلطاناً وجاهاً ولتكنزوا الأموال، وبذلك تصيرون عبيداً لدعوى الخلاص التي ترددونها بمناسبة وبدون مناسبة، حتى صارت دعوة الخلاص مهنة لكم.

صمت هند لأقل من لحظة، فقال هو لها:

- لم تكونوا أفضل منا، فنحن أفضل وأذكى وأقوى منكم. نحن نرى ونسمع ونتحرك ونطير بسرعة الضوء ونمتلك العلم ومن يمتلك العلم يمتلك القوة.

- أنتم لا تمتلكون العلم، قد تمتلكون العلم الضار الذي تستخدمونه في الحروب وتدمير البشرية وقتل الملايين من الأبرياء.

- نحن نتحول كما نشاء بينما أنتم لا تستطيعون ذلك، ونحن أشرف منكم، فنحن من نار حمراء بينما أنتم كالقردة.

- لم تكونوا مثلنا، أنتم تأكلون لحم بعضكم وتسفكون دمائنا ودمائكم بأيديكم، لقد تعلم العالم منكم سفك الدماء، كيف تقتلون الأطفال الأبرياء وتقطعون رؤوسهم، كيف تمزقون أجساد عصاه أوامركم، كيف تمزقون كل من يقترب من الحق أو يشعر بأنواره، فأين الشرف والكرامة؟

تقدم هو بجذعه الأعلى ومقترباً وفي صوت خافت قال:

- سوف نحكم العالم. وأريدك ان تساعدني.

- ثم ماذا؟

- أنا لا أخاف منك.

- أنا لا أريد أن تكوني خائفةً مني، على العكس أنا سأحميك من كل عدوا يقترب منك ولكن كوني في طاعتي ولك الأمن والأمان وإلا....

صُدمت من سماع ذلك، فقالت بشكل ميكانيكي وكأن شخصاً آخر كان يجيب بدلاً عنها:

- ان في هذا العالم أخوتي وبني جنسي.

فقال هو لها بنبرة حادة:

- لقد تركت لك جسدك هل تريدين أن أخذه معي، وأذهب به إلى كهف الموتى؟

صمت للحظة وأحست هند بالهلع والخوف من كلامه، لأنه يعرف كل الأسرار الدفينة لبنو جنسها ورغباتهم التي لم يفصحوا بها لأي أحد، ثم واصل قائلاً:

- سأكون معك في كل مكان، وسأنتظرك يوم أن أحتل العالم.

بدأ الجني عوني ينسحب ويدخل وسط الهواء ثانية، وفجأة، وكأن ريحاً تدور، التف الهواء واختفى كل شيء.

*****

فجأة وجدت نفسها في هدوء ليل وامتدار الصحراء بجوار بئر غريب. وفجأة غاصت ركبتها في الرمال، شدت عليها فتلوت من الألم، صرخت صرخة حادة لكنها ضاعت في

هدوء الليل وامتداد الصحراء، نادت على أحد ينقذها لم يجبها غير الصمت الذبيح وسقطت مغشياً عليها.

تري في غيبوبتها كأنها خرجت من مسجد وقد أطل نور الشمس على المنطقة ورأت جمالاً ورمالاً من حولها. وقصدت خيمة بها رجل نحيل الجسم وألقت عليه التحية. سلم الرجل عليها ودعاها للإفطار من باب إكرام الضيف، وكأنها بدأت في سرد قصتها للرجل محاولةً ايجاد حل لها!

نظر اليها الرجل وقال:

- لا أستطيع مساعدتك ولكن يوجد هنا بمنطقتنا قائد جليل اسمه الفاتح وهو في تلك الخيمة وهو حتماً سيساعدك!

توجهت الى خيمة القائد الفاتح. واستأذنت بالدخول إليه واستقبلها القائد الفاتح وسمع منها حكايتها، ونظر الي عيونها وقال لها:

- لم لا تتبعي تعاليم دينك يا ابنتي! ألم تعلمي ان النوع المتخطي للحجب هو الجن الكافر المشاكس؟ الجن العادي لا يستطيع تجاوز الحجب النورانية لأنه سيخاطر بحياته؟ على العموم أخبرك بشيء واحد وهو أن عقلك وجسدك الثاني هما فقط الذين هنا في هذه المدينة! اذ أن جسدك الحقيقي لا يزال

بمنطقتك التي كنت بها! وأكيد كل من سيتكلم معك هناك سيعتقد أنك مجنونه.

بهتت هند من هذه المعلومات وتذكرت ما قاله لها الجني! وقالت:

- كيف قسمت الى جزئيين؟ جزء في مدينتي وجزء هنا بسيناء؟ جسدي الحقيقي بدون عقل وجسده الثاني بعقل هنا؟

لم تستطع الدكتورة هند استيعاب الفكرة وارتمت على يد القائد تحاول تقبيلها طالبةً مساعدته في العودة الى جسدها الحقيقي فقال لها القائد:

- لا تخافي، وأعدك سوف يتم القضاء على مملكة الشياطين وعلى كل الأشباح المنفردة قريباً.

*****

استيقظت هند من اغمائها ولكنها شعرت إنها ليست هي، ثم جاءها هاتف من السماء هيئتها تغيرت، وجهها لم يعد وجهها والعينان لم تعد العينان، ولكنها شعرت بأن شعلتها أضاءت قبل أن تنطفئ، قد تكون سحابة عابرة سقتها قطرة ماء قبل أن تيبس، وهمست في نفسها: ربما الروح معي؟ ربما الجسد معي؟ فبالتأكيد لا!

لم تدرك كم من الوقت كان قد مر عليها هنا وهي تُصارع الموت بما تبقي لها أمل من روح، فتحت عينيها بصعوبة، كان الرمل قد غطي جفنيها، نفضت رأسها لتتخلص مما تراكمه فوقها، فأحست بألم شديد كادت تفقد عينيها نورهما فتغرقان في الظلام من جديد، تماثلت للصحو، وشيئاً فشيئاً، انكشفت لها الحجب المضبة، فبدت بعض النجوم الكسلى تلوح في الأفق، تحسست رأسها فغاصت يدها في لزوجة لم تعهدها، مدت يدها ورفعتها أمام ناظريها المتعبين، فلم تتبين في الظلام.

بدت النجوم من جديد تتسلل من بين فروج أصابعها، قربت باطن كفها الي أنفها، فشمت رائحة الدماء، أرادت أن تتأكد، لعقتها، فأحست بالسُكر يتغلغل فيها لم تتخثر منه بعد، طاب لها الطعم فراحت تلعق يدها بنهم شديد. تحسست الرمل فغاصت يدها فيه، حاولت معه اللعبة ذاتها شمته هذه المرة بخبرة من مهنتها كطبيبة عاودت الكرة لتتأكد، هتفت في داخلها، هذه رائحة عوني، صحا عقلها دفعة واحده صرخت دون صوت من المستحيل أن أكون معه هنا، حاولت أن تتذكر، لكن الألم الذي استيقظ في رأسها منعها من ذلك.

جربت مرات عديدة، أرسلت نظرة بعيدة في الليل البهيم فازداد الليل بهمة، تلفتت حولها تستطلع ارتفاع الكثبان وعمقها فراحت تتلاعب، تغور وتنبسط فازدادت ذهولاً، جمعت النجوم في السماء لعها تقول شيئاً، أو تشير إلى اتجاه ما، فظلت صامته، مبعثرة في قمة السماء كاملةً.

مدت جذعها لتنهض، فغاصت ركبتها في الرمال، شدت عليها فتلوت من الألم، صرخت صرخة حادة لكنها ضاعت في هدوء الليل وامتداد الصحراء، نادت على أحد ينقذها لم يجبها غير الصمت الذبيح، حتى الريح التي جاءت بها هنا تخلت عنها وعن حركتها فلم تسمع لها نأمة، تمنت للحظه لو أنها لم تستيقظ، هتفت في نفسها: نستيقظ من الموت لنواجه فظائع الحياة.

حاولت أن تتذكر رغم الألم، وتقول في نفسها إذا كان حلماً فيأخذني الله، وإذا كان حقيقياً فيهدني، شعرت أن كل ما جرى ليس حقيقياً، وبرغم أنها كانت تستشعر وجود شيء ما في حياتها منذ أن دخلت هذا العالم الخفي المظلم، لكنها لم تفكر لحظة بأن يكون الجني زوجها.

في حالة ذهول وخوف، سألت نفسها بخوف: ما هذا المكان الغريب؟ من الذي جاء بي الي هنا؟ زحفت بضع أمطار وهي

تجر رجليها خلفها، كان الألم لا يحتمل لكنها لم تملك خياراً، كافحت حتى تقطع التلة الرملية حبواً، نجحت بعد اجترار آلام لا توصف. صرخت. ترددت صدي الصرخة في المدي، ظلت بطنها ملاصقةً للتراب، شهقت شهقة ذهبت بعدها في بئر الغيبوبة من جديد.

جاء اليها ثلاثة أحدهم كان قائداً عسكرياً بالجيش المصري أبيض البشرة وكان يضع قبعة فوق رأسه، والثاني ضابطاً طويلاً أسود البشرة ريفي، والثالث كان جندياً صعيدياً طويلاً يقف في مواجهة الشمس فيحجب بعضها عنها.

- هل ما ذالت حيةً؟

- أشك في ذلك. يبدو أنها فارقت الحياة منذ أيام.

- كيف وصلت الي هنا؟

- ليس بمقدور البشر أن يسيروا مسافة أيام دون سيارة أو ماء وطعام.

- مسكينة.

- اعتقد أنها قد ماتت قبل أيام.

- إذا كانت قد ماتت قبل أيام كما تقول، فلماذا لم يتعفن جسدها؟

- الله وحده يعلم ذلك.

وبدأوا في مساعدتها، فأشار أحدهم الي عينيها، فكل شيء في جسدها كان قد تعطل باستثناء غبش النور في عينيها.

لم تستطيع أن تنهض أو أن تقول شيئاً فهي في بئر غيبوبة عميقة جداً، وكانت آثار الحروق التي تركتها الشمس علي وجهها مؤلمة الي الحد الذي لم يتمكن أحد من معرفتها. وتراءه لها الجنود الواقفون فوق رأسها كأشباح، ولكن صدي الصوت يتردد في أذنيها.

دنا القائد منها، نظر في إحدى عينيها مباشرة، رأي هالة سوداء تحيط بها فزك شفتيه، أمال رأسه باتجاه الآخر ونظر فيها ثم هز رأسه بأسف، ظن أنها ميته، رفع القربة العسكرية الي فمها لتشرب منها، فهل يفعلها الضابط ذو البشرة السوداء الذي يحدق في عينيها ويقطر في فمها بعض قطرات الماء فتعيد اليها الحياة؟ كيف وهو يوقن أنه أمام جثة؟ دنا منها الرجل أكثر وضع القربة جانباً، مد يده الي الجفن الأيمن ورفعه عالياً ثم تركه، عاد الي الجفن الأيسر وفعل الشيء ذاته، التفت الي الجندي وقائده وقال بثقة؟

- قلت لكم لا فائدة.

- ماذا تفعل؟!

- كرامة الميت دفنه.

- حسناً. نأخذها وذهب أولاً الي المستشفى ونتأكد.

شب الرعب في خلاياها، انتفضت روحها وبقي جسدها على حاله لا يحرك ساكناً.

- لندخلها السيارة وندفنها بعيدة عن الطريق.

- كيف؟ قبل ان نعرف هويتها.

ذهب الجندي ليحضر السيارة قربها.

- السيارة جاهزة، ارفعا معي.

حملوها داخل السيارة، وساروا بها.

- ضع غطاءً على وجهها.

- لماذا؟

- لا يجب أن يُكشف وجه الأموات.

- ومن قال إنها ماتت.

نذهب الي المستشفى ونعرضها على الأطباء.

- لا بأس. ضع غطاءً فالأرواح تحتاج الي ظلال أيضاً.

ثم قال لهم القائد:

- توقفا عن الهراء هذا.

وحث القائد سائقة فقد كان السائق أكثر بطئاً واحتراساً.

ثم عاد أحدهم وقال بصوت مرتفع وغاضب كأنما انتبه لشيء ما:

- ولكن إذا كان لم يتعفن جسدها وأنت تقول إنها ماتت قبل أيام، ألا يمكن أن يكون قد سكنته أرواح الجن.

دب الهلع في أوساط الآخرين:

- وما عسانا نفعل إذاً؟

- ليس أمامنا الا أن نسير بها الي المستشفى ونعرضها على الأطباء.

- وماذا سيفعلون بجثتها؟

- جثة؟

- وما أدرانا أنها بشرية!!

- الأفضل أن ندفنها هنا كأن شيئاً لم يحدث.

صاح القائد: توقفا عن هذا الهراء. كلامكم سخيف.

- وإذا كانت جنيةً يا فندم...؟

قاطعه القائد..

- ستنقذ نفسها يا فندم، الجن يعيشون عمراً أطول.

- تقصد، الجن لا يموتون!

وهم في طريقهم الي المستشفى العسكري القريبة منهم، كانت الشمس تختبئ تدريجياً خلف الجبال البعيدة. على امتداد الرمال الصفراء، وفي المستشفى حملوها ووضعها الأطباء في غرفة خاصة.

*****

الفصل العاشر

صرخة الأشباح

في اليوم التالي ذهب القائد ومعه مجموعة من ضباطه وجنوده لاستكشاف البئر الذي عُثر بجواره علي هند، بدأت حينها سيول كارثية أحدثت كوارث كثيرة وكانت مياه هذه السيول تغور في الأرض وتقتلع أشجارها وتعبث بنخيلها، فاتجهوا ناحية البئر، وفجأة ظهر أمامهم مكان هو عبارة عن منظومة من المغارات والكهوف غير الطبيعية في تجاويف كبيرة تحت الأرض في المنطقة القريبة من البئر والتي ظهرت نتيجة هذه السيول الكارثية.

تقع هذه المغارات والكهوف الكبير والمظلمة تحت الأرض، قرروا دخولها بعد يومين لكي يجهزون كل شيء للدخول إليه واستكشافه و مر يومين وجاء اليوم الذي سيستكشفونه ، ذهبوا و جهزوا الأسلحة وبعض الحبال و المصابيح الضوئية لنزول الكهف، وذهب معهم مجموعة من المستكشفين والخبراء، صعدوا جميعاً الي السيارات وانطلقوا و بعد نص ساعة في الطريق، وصلوا الي المكان، نزلوا من السيارات و انزلوا اغراض الاستكشاف منها وبدأت المحاجر في العمل لازالت بعض الأحجار الجانبية الضخمة، ومن هنا بدأت

كمدينة أشباح في الظهور بشكلها المخيف، هبطوا اليها و كان المكان مرعباً و مظلماً وعميقاً، قرر الضابط بان يهبط أولاً، أنزل المستكشفين حبالهم و ربط أحدهم طرف الحبل الآخر في الشجرة المجاورة و قام أحد الضباط بربط خصره بحزام و ربط الحزام بالحبل الذي أنزله و ارتدي خوذته ومعه مصباح ضوئي ، قام بتشغيل الضوء وقام بالنزول ثم قام ضابط آخر ومعه بعض الجنود، نزلوا خلفه وعندما نزلوا جميعهم لهذا المكان ، كان المكان كبيراً جداً، قاموا باستكشافه وشاهدوا ثلاثة طرق منفصلة داخله ، قال أحد الضابط:

- سوف اتجه من هذا الطريق.

وقام الآخر:

- وأنا سوف اتجه إلى الطريق الثاني.

قام باقي الجنود بالذهاب في الطريق الثالث ومعهم ضابطاً وقد تفرقوا وذهبوا وعندما كان أحد الضباط وجنوده يسيرون في الطريق الأول بدأوا بسماع صوت مرعب جدا، كان يقترب منه الصوت وفجأة توقف الصوت وعم صمت طويل، قام أحد المستكشفين بتوجيه مصباحه إلى الإمام، شعر كأن أرواحاً شريرة تملا أرجاء هذا المكان، وكانت الصدمة.

شاهدوا مخلوق رمادي اللون وعيناه كبيرتان ولونها أحمر وأسنانه مدببة وكان كبيراً مرعباً، قام هو بالركض وكانت المفاجئة الطريق كان مسدوداً فارتعب وقام بالرجوع إلى الخلف ولم يجد ذلك المخلوق لقد اختفى لكن سمع أحد الفريق صوت المخلوق يصدر من فوقه رفع رأسه لأعلي وليصدم بما شاهد لقد كان ذلك المخلوق متعلق في سقف الكهف.

- يا إلهي.

غمغم الضابط في ذهول.

- مستحيل، لا أتوقع أن أري هذا.

وهتف جندي من خلفه وهو يلوح بيده الي أعلي وفي شيء من الذعر.

- لم أري مثل تلك المخلوقات من قبل.

- ابتعد.. ابتعد.

- يا إلهي! لابد أن نفعل شيئاً.

فجأة ظهر لهم مخلوقين غربيين ممزوجين وبكل غضبه وثورة صوب الضابط مسدسة نحو الجسدين الممزوجين، ثم أطلق النار، وأفرغ كل رصاصه، ثم فجأة انقض مخلوقات

آخري على الضابط وسقط بالفعل جثةً هامدة وكانت المخلوقات قوياً، أمسكت بالضابط وقامت بالتهام لحمه، سمع الضباط والجنود صوت الضابط قاموا بالرجوع والذهاب لرؤية ماذا حصل له عندما ذهبوا وصلوا لمكان الضابط شاهدوا منظراً بشعاً جدا كان الضابط ميت وجسده مهشم ومليء بالدماء المسفوكة في كل مكان.

اقترب أحد الجنود في حذر وقال وهو يرتد كالمصعوق:

- يا إلهي.

أما الباقون فقد انطلقت من حلقهم شهقة، كادت معها أفئدتهم تثب خارج أجسادهم.

- مستحيل. مستحيل.

وقال جندي آخر في لهجة أقرب الي الارتياع.

- ما أصاب جسد الضابط لقد أصبح أشبه بهيكل عظمي.

- لقد التهمة المخلوق.

وفي بطء استدار الجندي وهو ينظر الي أعلي، قبل أن تتألق عيناه، ثم سمع أحد أطلق ضحكه عالية. ضحكة رهيبة

مخيفة. ضحكة بدت أشبه بصرخات الشياطين ساخرة.. سمعها الجندي وقال:

- لا. لا يمكن أن نبقي معه هنا.

- يجب أن نطلق عليهم النار بسرعة.

- لابد أن نظفر فهؤلاء الأشباح.

- أنهم سيقتلنا جميعاً إذا لم نتخلص منهم.

- سيقتلوننا لو بقوا هنا. لابد أن نظفر بهم.

- لا تمنحوه الفرصة، ناوروه دوماً، ولا تثبتوا في موقع واحد لحظة واحدة. لا تسمحوا لأي مخلوق باختراق أجسادكم، والاستقرار فيها. تحركوا بسرعة.

اندفع الكل يتحركون عشوائياً داخل هذا الطريق، وقلوبهم تخفق في عنف، والضابط الآخر يتابع.

- وليجربوا أولئك المخلوقات على أن يتماسكوا ولو للحظة واحده، لابد ان نزيحهم من الوجود ونقسم على هذا وسوف أعلن لكم خطة جديدة.

فجأة ظهر لهم مخلوق وبرزت أسنانه الحادة على نحو مخيف على الرغم من شفافية هذا المخلوق وكأنه يعلن

سخريته منهم، ابتسم لهم وفجأة ظهر لهم ذلك المخلوق قام بمهاجمة الضابط وقام بالتهام يده وبتهميش جمجمته، قام أحد الجنود بسحب سكينة وقام بالهجوم على ذلك المخلوق المخيف وقام بطعنه عدت طعنات وخرج منه دم أسود وقام بالصراخ من ثم سكت ولم يتحرك لقد مات أيضاً وأراد أحد الجنود النيل من المخلوق لكن بدئت ملامح الصدمة على وجهه لقد شاهد الكثير من هذه المخلوقات وهي تحوطه من جميع الاتجاهات وهجموا عليه وقاموا بتمزيقه إلى قطع وبدأوا بأكله.

حينما كان بعض الجنود يمشون في الطريق الثالث وجدوا مكان عالي وتحته حفرة عميقة واقتربوا من حافة الحفرة وفجأة دفع الشبح أحد الجنود ووقع في الحفرة وكان في الحفرة جماجم وعظام، وفجأة خرج من الحفرة مخلوقات قاموا بالانقضاض على بعض الجنود وقاموا بافتراسهم ارتعب أحدهم وأراد الخروج ركض وركض ووصل إلى مكان فتحت الخروج قام بتسلق الحبل ولكن ظهر له مخلوق قفز عليه ، اسقط الجندي الي الأسفل وقد كسر ضهره بسبب السقطة لكنه لم يستسلم و نزل إلي ذلك المخلوق وتقدم إليه و قام بغرس يديه فيه و اقتلع قلبه من مكانه و التهمه و لقد مات الجندي وتبقى فقد ثلاث جنود كانوا يركضون في الكهف و

قاموا بمشاهدة رسومات على جدران الكهف كانت الرسومات لمخلوقات تشبه تلك المخلوقات وفجأة سمعوا صوت قادم إليهم وجهوا الضوء إلى مصدر الصوت شاهدو الكثير من المخلوقات قاموا بإطفاء الضوء و قال أحد الجنود لزملائه لا تتحركوا ولا تصدروا أصوات، قاموا بكل صمت و اقتربت منهم المخلوقات قال أحد الجندي:

- لنتحرك ببطيء.

- هل سنتركه يريق الدم هنا؟

- طبعاً، لا. نحن عسكريون ومهمتنا هي حماية الوطن من أي خطر، مهما كانت ماهيته.

- لقد انعزلنا عن العالم الخارجي. ماذا نفعل؟

وقال له أحد الجنود وهو في توتر شديد.

- هذا هو الواقع للأسف، كل الأجهزة لدينا قد تلفت حتى نظام الأمن الآلي.

سأل أحد الجنود زميله:

- وماذا عن أجهزة الهاتف العادية؟

- لقد عُزلت آلياً خاصة في مثل حالات الطوارئ القصوى هذه.

غمغم الجندي في مقت وقال:

- لهذا أمقت دوماً نظم السيطرة الالكترونية الكاملة هذه.

- ماذا نفعل؟

- نتحرك ببطيء كما قلت. ربما يمكننا الاتصال بالداخل ولا يمكننا الاتصال بالخارج.

قاموا بالتحرك وببطيء إلى ان خرجوا من مكان تواجد المخلوقات ذهبوا لكي يخرجون من الكهف و شاهدوا أحد المخلوق أمامهم قام المخلوق بالهجوم على الجندي قام الجندي بفتح النار عليهم فقد بدأ الجنود بضربهم جميعاً و سقط بعضهم أرضاً ونهض الجندي من الأرض و قاموا بالذهاب إلى مكان الخروج رجعت المخلوقات الي الخلف حينما اتجه الجنود الي ناحية ضوء الشمس، فهم الجندي ذلك فاتجه هو اليهم مرة أخري كي يهجموا عليه فيستدرجهم الي فوهت الكهف ، وبالفعل وصلوا إلى الحبال لكي يصعدوا وشاهدوا خلفهم جيش من المخلوقات الموحشة وقام الجندي وزملاءه بتسلق الحبال بسرعة وقامت الأشباح بتسلق

الصخور، بينما كانوا يتسلقون قفز مخلوق على أحد الجنود و حاول إسقاطه قام هو بإخراج سكينة وقام بغرسها في عينه، بدئت الدماء التدفق من عين الشبح وقام الجندي الآخر بضربه وإسقاطه إلى الأسفل وصعد الجندي إلي أعلي وخرج من الكهف وصعد الآخر أيضا إلى أعلي لكن أمسكه مخلوق بقدميه وحاول سحبه و ذهب الجندي الآخر و احضر مدفعاً وأطلق عليهم النيران فوقعت المخلوق في أسفل الكهف مد يده الجندي لزميلة الآخر و أخرجه من الكهف و تمكنوا من الخروج و وفجأة خرجت المخلوقات من الكهف لكن قاموا بالصراخ الشيطانية والاحتراق بسبب ضوء الشمس فهم يخشون ضوء النهار ولا يعيشوا الا في الظلام. وذهبوا الي القائد وصعدوا إلى السيارة وخرجوا من هذا المكان الموحش وعادوا إلى معسكرهم بعد أن نجي منهم الثلاث جنود وقائدهم.

*****

في المستشفى، ظلت هند عيناها مفتوحتين دون أن تتحركان أو يطرف رمشها. عشرات الأسلاك والموصلات غزت أنحاء جسدها الساكن تحت جهاز يصدر زعيقاً بين فترة وأخري ويرسم خطوطاً غير مفهومة. في الغرفة قد تجمع

الأطباء حول الجسد المسجى، بدأت تسمعهم يتهامسون والكمامات تغطي نصف وجههم والعيون تتلاق في منتصف الطريق والرؤوس تهتز اهتزازاً خفيفاً، والأيادي تتناقل بين الأسلاك. وفجأة بدأت هند في شيء من الصحو يزيح الظلام في عينيها شيئاً فشيئاً. انتبهت لحالها وللمكان الذي هي فيه، وحاولت أن تستعيد الأحداث التي مرت عليها. استعادت وعيها واستيقظت وكأنها كانت في سبات عميق ومباشرة بعد ان استعادت وعيها ووجد نفسها بفراش وحولها أشخصا بلباس أبيض والعديد من الأجهزة الطبية في يديها وصدرها فقالت لهم:

- من أنتم؟

- أين أنا؟

- حمد الله علي السلامة دكتورة هند. لقد عاد اليك وعيك وذاكرتك، أنا الدكتور أيمن، المتابع لحالتك منذ أن أخبرتني الممرضة باستعادتك للوعي وتحركك في الفراش وأنا هنا اترقب ان تفتحي عينيك.

- أين أنا وما هذا؟ هل أنتم من الجن؟

ضحك الطبيب وقال أنت هنا في المستشفى العسكري. كنت فاقدةً للوعي منذ أكثر من عشرة أعوام واليوم عاد إليك وعيك.

قالت هند متعجبةً:

- عشرة أعوام؟

- مستحيل.

- من جاء بي هنا؟ وأي سنة هذه؟

أجابها الطبيب:

نحن في عام ٢٠٢٥م، لقد وجدك الجنود بجوار البئر المجاور لكهف الخيتعور، وجدوك فاقدةً للوعي كان بك العديد من الإصابات الحرجة، ولكن لم نفقد الأمل في استعادتك لوعيك فحالتك كانت خطيرة جداً. أما الأن وقد استعدت وعيك يلزمك متابعة طبية وسوف نتابع حالتك.

همست هند في نفسها وقالت:

- روحي وجسدي معاً؟ ربما روحي؟ بالتأكيد لا، ربما جسدي؟ وما هذا؟ وماذا حدث لي؟

حاولت أن تعتدل هند قليلاً وهي ممده.

- اصابك إرهاق. استريحي.

سألت الطبيب مجدداً هل أستطيع الخروج من المستشفى؟

أجابها الطبيب.

- يلزمك متابعة طبيه لمدة أسبوعين على الأقل.

سألت أختها الطبيب عن حالتها قال لها:

- لقد أصابها بعض الإصابات الجسمية التي يتحكم فيها الجهاز العصبي الذاتي في الحواس وجهاز الحركة لديها، وهذا ما يجعل لديها رد فعل سريع للتحول نفسياً أحياناً أعني تحويلاً جسمياً لأمور نفسية نظراً لأنها تعتمد على حيلة دفاعية نفسية أساسية وهي التحويل، حيث تحول الانفعالات والصراعات إلى أعراض جسمية كحل رمزي للصراع الداخلي لديها. كما أن دقات القلب لديها تتضاعف الى أربع مرات عن الشكل العادي وهو أمر غير طبيعي.

بدأ مجموعة من الأطباء العسكريين ومعاونيهم تروح وتجيئ وآخرون ينتبذون زاوية يتحدثون، بعضهم ابتعد قليلاً وجاءت اليها اختها وجدان وبعض الأقارب من النساء الذين جلسن في صف طويل متراصات، وقد عقدن أيديهن أمامهن واكتفين بالصمت الكئيب على غير عادة حين يجتمعن.

اعتدلت هند قليلاً، ونادت:

- وجدان.

- نعم، هند.

اقتربت منها وجدان وجلست الي جوارها. وراحت تحدثها كما لو كانت لا تعرف ماذا حدث لها.

- اين امي؟ أين ابي؟ لماذا غابا عني؟

- اختطفها الموت.

كيف ماتا؟

- هل نسيت أن الموت لا ينسي أحداً!!

- متي؟

- ألا تتذكرين؟ الموت لا يترك لنا حبيباً يا هند.

- ولكن كيف؟

- أنت نسيت تماماً! استريحي الآن.

- أريد ان أعرف، كيف هذا؟

- ألا يكفي كلمة الموت لتفسر لك كيف ماتوا، ليس هناك فرق بين طريقة الموت وأخري، استريحي الآن.

- لماذا تقولين هذا؟

- أقول فحسب، ولكن هذه هي الحقيقة.

- وكيف ماتا؟ كم تمنيت أن أراهما واقبل رأسهما.

وتلقي بكاء عيناها الواسعتان المحمران استفهاماً للمحيطين بها، بحثةً عن سؤالها المؤلم.

شعرت هند بأن ثمة تغييرات تجري في أعماقها، وبأنها بدأت تفقد شيئاً من ذاكرتها، وأنها صارت ليست هي نفسها. راودها إحساس بأنها بدأت تخرج من شخصيتها مثلما تخرج الأفعى عن جلدها القديم.

وقامت أختها وجدان لا إرادياً بانسكاب الدموع الحارة من عينيها على الخدين الذين تورما حزناً وبدأت هي قليلاً لطرد استحواذ الذكريات المؤلمة عليها. ولا إرادياً ايضاً انهمرت الدموع على خدي هند. وخافت هند قليلاً، لكنها أحست بالراحة لهذا التغيير الذي جري معها جعلها تشعر أنها صارت لامبالية قليلاً لهذا العالم الخفي. وهمست في نفسها وقالت: يجب أن يوقف هذا الشبح عن إرهابي، سوف يرحل

نهائياً كما يرحل الليل عن النهار. سنرى نهاية أشباح القتل قريباً، نهاية الأشباح المنفردة، نهاية الرعب والقتل وسفك الدماء أنه فجر المعجزات.

مرت دقائق وفجأة صاحت بصوت عال وبكيت وانتحبت فحضر بعض العاملين والممرضون للمساعدة وبدأوا تهدئتها وسألتها أحدي الممرضات ماذا حدث؟ فلم تقص عليهم شيء وأوصاها أحد الممرضين بالوضوء والصلاة. فتوضأت وحاولت الصلاة، ولكن عاد لها الألم والوخز بقوة في رأسها فاستنجدت وبكيت وسقطت مغشيةً عليها ومصروعةً على الأرض، ووضعوها في سريرها كحالة خاصة تحت إشراف أطباء متخصصين.

*****

الآن هند تعيش في أمن وأمان ولكنها ما تزال متبوعةً من عالم الأشباح، والأرواح السفلية، عالم الجن الأسود. تاهت في براري تفكيرها وفي هذا العالم الآخر الذي يريد ان يحتل العالم كله. سألت نفسها: هل يجب أن أخبر أحداً بما اعرف الآن من حقيقة واضحة؟ لكن ذلك الجني طلب منها ألا تخبر أحداً بما جرى في حياتها، ثم كيف سيكون رد فعله إذا ما أخبرت أحد بما عرفته من حقيقة؟ ثم أجابت على نفسها

وقالت: ان القتل والدم المسفوك هو طريق كل من يقترب من الحقيقة! وهمست في نفسها مرة اخري وقالت: لماذا ظهر لي هذا الجني؟ ولماذا اختارني لأساعده بل ويحبني؟ هل أنا رخيصة إلى هذا الحد بحيث حتى الجني يطمع بي؟ أم هل أنا جميلة إلى هذا الحد فعلاً بحيث يرغب الإنس والجن في الزواج مني فحسب؟ لكنها تذكرت أن هذا الجني كانت تراه بلا ملامح، وأحياناً كأنه ضبعاً وأحياناً كانت لا تري في سلوكه أنه من بني الأنس سوى قامته التي كان يظهر بها منذ أن تزوجها.

*****

الفصل الحادي عشر

فتاة الكهف

أكتوبر عام ٢٠٢٥م.

بدأ الدكتور ايمن الذي كان متابعاً لحالة هند ينام نوماً هانئاً بعد تحسن حالتها وبعد خروجها من المستشفى، لم يشعر بالنوم الجيد طوال هذه الفترة السابقة أبداً. استيقظ في صباح أحد الأيام وقد سطعت الشمس، أزال الستار عن نافذة غرفته فغمرها الضياء، ونظر من النافذة فرأي السماء وادعة تبتسم له ورأي الأشجار خضراء يانعه والأرض من تحتها ساكنه، همس في نفسه " المؤتمر" تحرك في بيته مسرعاً من غرفته الي الأخرى، ثم الي الحمام، الي غرفته، بدل ثيابه مسرعاً ومضي الي المؤتمر.

بدأ المؤتمر أول فقرات برنامجه بعد كلمات الترحيب التقليدية. كان المتحدث الأول هو طبيب أمريكي عالمي تحدث عن الأساليب العلمية الحديثة في علاج أمراض القلب وأنواعها وطرق الوقاية منها. كانت محاضرة ممتعة وعميقة، وقد أستوعب كل المفاهيم التي تحدث عنها الطبيب العالمي، إذ كان المحاضر يتحدث عن ارتفاع ضغط الدم

وعلاقته بأمراض الاكتئاب والأمراض النفسية، وعلاقته بالجهاز المناعي في الجسم.

عند استراحة الغذاء وعلى المائدة جلس الدكتور أيمن مع صديقه الدكتور مدحت وزميلتهم الآن الدكتورة هند، وبعض الأطباء الزملاء من الدول الأخرى.

في الجلسة الثانية بعد استراحة الغذاء شعر بفرحة غامضة حين عرف بأن المحاضر الأول في الجلسة هو الطبيب المصري جراح القلب مجدي يعقوب استمع إليه بانتباه شديد. لاسيما وأن محاضرته تدور حول موضوع المؤتمر. إذ كانت محاضرته عن الأساليب الجديدة في علاج مريض الذبحة أو القصور في عضلة القلب بمستشفيات الجامعات المصرية.

بعد انتهاء المحاضرة التي أثارت الجميع بغزارة معلوماتها، تقدم الدكتور أيمن منه بصحبة صديقه الدكتور مدحت، وعرفاه بأنفسهما فرحب بهما جداً، برغم انشغاله الشديد بالمؤتمر. حاولا دعوته إلى العشاء فاعتذر لهما بأدب جم، وبعد أن تركاه فكر الدكتور أيمن للحظات بهذه الكفاءات المصرية والتي لابد أن تستفيد بلدنا منهم الكثير، في الوقت الذي يستمع العالم كله إليهم لغزارة معارفهم وتميز تجربتهم.

بعد انتهاء المؤتمر جلسوا جميعاً كل الزملاء في مطعم الفندق، بعد أن وقف هو للحظات مستكشفاً المكان. كانت الأجواء لطيفة وهادئة، والطاولات موزعة بشكل يحفظ خصوصية الزائرين، والأجواء ليست بالمعتمة لكن الإنارة خافتة. واستمعوا الي حكاية أو حكايتين عن الأرواح الغير مؤذية التي تظهر للناس من وقت لآخر ولكنها لا تدخل في شئونهم وسمعوا كذلك عن بعض تلك الحكايات المخيفة التي كنا نقرأ عنها في قصص الرعب وقص عليهم مدحت حكاية من تلك الحكايات، وبعدها ساد صمت لفترة وجيزة. علق أحدهم قائلاً:

ـ أعتقد أنك قد عشت حياة ضد أي روح شريرة.

ساد الصمت بينهم ثانية لفترة قصيره. فقد كانوا جميعاً يفكرون في قصة مدحت. فقد قيل إنها حدثت حقيقية، مما جعلهم يكتمون أنفاسهم لمدة عشر دقائق. وقال أحدهم أنه لم يسمع من قبل أن هناك روحاً شريرة قد تظهر في صورة إنسان.

نظرت إليهم الدكتورة هند، ثم قالت:

- هذا بالتأكيد قد يجعل الأمر أكثر سوءاً ولكنه حدث بالفعل. فربما يكون لبعض الناس حساسية شديدة لمثل هذا النوع من العالم الخفي.

انتبه الدكتور أيمن لكلامها فعلق قائلاً:

- إن استماعي وقراءتي لقصص الرعب وهذه الأرواح تمثل منفساً لي بعض يوم من العمل الشاق حتى لا أشعر بالتوتر والإحباط، كما أن المشاعر التي تثيرها في داخلي هي مشاعر العواطف المكبوتة التي تختلف عن أي شعور آخر يمكن أن أتعرض له خلال يومي العادي، فتحدث تغييراً إيجابياً في نفسيتي أحياناً.

صمت الدكتور أيمن للحظة، ثم علق أحدهم قائلاً:

- أعتقد أنك يا دكتورة هند أيضاً قد عشت حياة ضد أي روح شريرة.

نهضت الدكتورة هند واقفةً وتطلعت إليهم.

نظر اليها أحدهم ثم قال:

- أعتقد أن لديك قصة تستحق أن تروي.

تردد ت قليلاً، ثم أجابت، قائلةً:

- نعم.

فقالت إحدى الطبيبات:

- هل حقاً هذا النوع من الأرواح يعود للحياة لينشر الأذى بين الناس ويتسبب في وفاتهم أحياناً؟

- نعم. وأحياناً ....

صمتت الدكتورة هند للحظة، بعد أن تبادلت نظراتها الي الدكتور أيمن، ثم قالت:

- لا أحد يعرف هذه الحكاية أبداً. انها حكاية مرعبة تفوق التصور.

- هل تقصدين أنها ستخيفنا؟

- أنها ليست بمثل هذه البساطة وحقيقة أنا لا أستطيع أن أشرح. ولكن قد اجبركم على التفكير والتخيل.

- اوه. رائع.

- حسناً اذن فلتجلسي ونبدأ.

- لا أستطيع أن أبدأ الآن، أريد أن أخذ قسطاً من الراحة فاليوم كان مزدحماً بالمحاضرات. وسوف نجتمع على دعوة العشاء اليوم وسوف تستمعوا الي القصة كاملةً.

أصبنا جميعاً بالإحباط عندما قالت ذلك.

- أرجوك أروي علينا الآن. هل هي تجربتك الشخصيةً؟

كررت هند إجابتها بالنفي فقالت:

- أوه، لا، والحمد الله.

- هل هي لأحد أقاربك؟

فربت على قلبها وقالت:

- لا، ولكن لهذه الحكاية من الخوف والألم يكمن فيها ولم أستطيع نسيانها أبداً.

- هل روي لك الحكاية كاملةً؟

- نعم.

- هل صاحبت القصة على قيد الحياة؟

لم تجب الدكتورة هند، لكنها قالت:

- كانت صديقتي وكانت إنسانة فاتنة للغاية وكانت زميلتي في إحدى المراكز الطبية بالقاهرة.

صمتت للحظة ثم سألتهم، قائلةً:

- هل تتذكرون حكاية البئر الملعون وأسطورة الكهف الموحش في وادي العريش الذي تم اكتشافه من قبل.

رمشت عينا أحدهم مرتين ثم حول بصره على صديقه الذي كان صامتاً.

- لا شيء.

- نعم. أتذكر هذه الحكاية.

- هل هي فتاة البئر؟

- نعم. البئر الملعون.

- يا إلهي. حقاً!

- أتذكر أنه تم العثور على الكهف المجاور لهذا البئر بسبب السيول الكارثية والتي أحدثت كوارث كثيرة وكانت مياه هذه السيول تغور في الأرض وتقتلع أشجارها وتعبث بنخيلها.

- أعتقد أن هذا الكهف في مدينة العريش، بالتحديد في منطقة وادي البروة بشمال سيناء.

- نعم.

- وعثروا على فتاة بجوار هذا البئر المجاور للكهف.

- هل هي صاحبة القصة؟

- نعم. هي فتاة البئر. وتم العثور على البئر وكهف مجاور له، وهو عبارة عن مقبرة جماعية ومساحته كبيرة جداً. وكان يضم الآلاف من الجثث، ووُجدت الكثير من الجثث تعود إلى أشخاص لم يتم الكشف عن هويتهم حتى الآن. ولولا اكتشافه لكان منه دمار الأرض.

- يا إلهي. دمار الأرض!!

- أنصت.

- كانت الجنود في سيناء تري أشباحاً تتحرك من بعيد داخل الكهف وكانوا يتناقلون روايات أحياناً.

- أعتقد أنهم عثور على هذا الكهف بسبب العثور على الفتاة بجواره.

- أعتقد بسبب السيول الكارثية.

كان جميهم يُنصت لها في تلك اللحظة، وبالطبع كان من بينهم الدكتور أيمن، سألتها إحدى الطبيبات عما حدث؟ وأضافت الدكتورة هند قائلةً:

- ومن أغرب الأشياء التي وُجدت في هذا الكهف هي المومياوات، والتي عرف أنها قد تعرضت للقتل وكأنهم كانوا في طريقهم للتحنيط وكان من بين ما وجد جمجمة عملاقة تضمنت عدد كبير من هؤلاء القتلى، ربما القاتل حاول التجربة عليهم حيث كان يحاول تحنيطهم بمليء رئتهم بالتبغ، ولكنهم قد احترقوا جميعاً. اما البئر كان عبارة عن فتحة كبيرة يصل اتساعها مئات الأمتار. وتهوي إلى فجوة سوداء مظلمة لا قاع لها، فهي كالبئر لكنها ليست من صنع البشر، لذا فإن البعض يحكي أن الجن هم من حفروها لأحد ملوك الجن اليهودي الذين سكنوا المنطقة في زمنٍ غابر ليخفي فيها موتاهم والتي استوطنها اتباعه من الجن وكان البئر لكل الذين خرجوا عن سيطرتهم فهو حُفر بواسطة الجن، حتى يجعلوه سجناً لمن يعصي أوامرهم من الأنس.

- هل مازالت هذه الفتاه حيةً؟

- نعم.

- هل كان هذا البئر من صنع البشر؟

ـ قلت لكم أنه ليست من صنع البشر، فليس بمقدور البشر أن يفعلوا هذا!

ـ لقد غاب عقلي عن إدراك ما تقولين يا دكتوره هند.

ـ ماذا حدث بعد ذلك؟

ـ استمرت عمليات التنقيب حوالي أربعة عشر شهراً، وقد وجدوا شظايا عظام، وجماجم وأسنان وشظايا فحمية. والغريب أنهم وجود عظام بشرية حديثة تابعة لأربع أجناس عربية مختلفة من البشر، ولكن، لم يتم العثور على أي بقايا بشرية أخري في الكهف. ورغم أنه لا يزال هناك بعض الشكوك حول الأعمار الدقيقة للبقايا، إلا أن الصورة العامة باتت أكثر وضوحاً.

ـ وهل تم العثور على شيء آخر؟

ـ نعم. لم يعتقد أحداً أن ما كان مكاناً مخيفاً يبث الرعب في قلوب الناس، كنز لا يقدر بثمن.

ـ وجدوا به كنزاً!

ـأوه!

- نعم. لقد تم العثور على الكثير من الثروات العربية والأوربية من قطع ومجوهرات ذهبية وقطع حجرية أثرية ولكنها كانت فالبئر.

- البئر كان مستودع للكنوز؟

- نعم. البئر المجاور للكهف.

- ثروات عربية كثيرة. ولا تزال هناك العديد من الأسئلة التي ينبغي الإجابة عليها، من خلال المزيد من الاكتشافات المستقبلية. في حين أن هناك أيضاً دول عربية سوف تساعد في رفع النقاب عن بعض أسرار هذا الكهف، ولكن مصر أول من أزاحت عنه الستار، ستار من الأسرار، والذي وُصف بأنه أكبر الكهوف في المنطقة العربية.

كان جميعهم ينصت لها في تلك اللحظة، وبالطبع سألها أحد الأطباء عما إذا كانت الفتاة لها علاقة بهذا الكهف أم لا؟

أجابت الدكتورة هند وقالت في هدوء:

- نعم. قلت إنها هي فتاة البئر الملعون المجاور للكهف. وكانت ألطف إنسانه عرفتها في حياتي، فأنا أعرفها منذ فترة طويلة حتى حدثت لها هذه التجربة المرعبة. كنت أعرفها منذ طفولتي وكانت معي بالجامعة وقابلتها مرة ثانية في الكلية،

كانت فترة الدراسة جميلة، لقد أحببتها كثيراً، فلو لم تكن صديقتي حقاً ما روت لي القصة. فهي لم تحكيها لأحد على الاطلاق ليس انها لم تقل ذلك، بل لأنني كنت أعرف أنها لم تقلها لأحد. وكنت متأكدة من ذلك. وسوف تكتشفون السبب في ذلك عندما تسمعون القصة كاملةً الليلة.

- لكني لا أستطيع الانتظار لسماعها.

- الليلة في العشاء، الآن ينبغي أن أذهب لأخذ قسطاً من الراحة.

*****

عاد الجميع إلى غرفهم ليأخذوا قسطاً من الراحة إذ تنتظرنا دعوة على العشاء لا نعرف نتائجها، لكني متحمس لخوضها، استلقيتُ على سريري، ودون إرادة مني دخلت في غفوة عميقة لم استيقظ منها إلا رنين جرس الهاتف. كنت بين النعاس واليقظة. ولكسلي ضغط على زر الصوت العالي ليرد. فسمعت صوت صديقي الدكتور مدحت يأتيني قلقاً علي.

- أين أنت يا دكتور محسن؟ نحن ننتظرك. كل الأطباء والزملاء هنا، وقد سأل الجميع عنك.

أحسستُ بأني متعب. لم أكن أعرف كم مر على من الوقت وأنا نائم. لكنني حين سمعت أن الدكتورة هند موجودة غمري نشاط مفاجئ وشعرت بالصحو المباشر أنا متحمس لمعرفة حكاية صديقتها مع العالم الآخر.

رفعت صوتي عالياً، كي يسمعني، قائلاً:

- لقد أخذتني الغفوة.

- اتصلت بك ثلاث مرات ولم تجبني إلا هذه المرة.

فقلت وأنا لا أزال متمدداً على سريري وأتحدث عن بعد دون أن أرفع السماعة.

- لم أسمع. يبدو أني كنتُ غارقاً في نوم ثقيل.

- على أية حال أسرع فنحن ننتظرك.

- سنكون بانتظارك في المطعم الذي بالطابق الأول ولسنا في صالة المطعم.

نهضتُ بتثاقل شديد ولكن كان لي رغبة حقيقية في جلسة العشاء، كان لدي انجذاب لسماع هذه الحكاية. فكرت مع نفسي في الأمر وسألت نفسي: لماذا أتحمس لسماعها، بينما

كنت أفكر لماذا وقفت هند فجأة عند ما قلت لها بأن لديها تجربة مع الأرواح الشريرة.

*****

حينما دخلتُ إلى المطعم وقفتُ للحظات مستكشفاً المكان. الأجواء لطيفة وهادئة، والطاولات موزعة بشكل جيد، والأجواء ليست بالمعتمة لكن الإنارة خافتة. لمحت صديقي الدكتور مدحت يجلس بجانب صديقنا الدكتور أيمن وعلي يساره باقي الزملاء، بينما جلست الدكتورة هند قبالتهم منتظرين أن أنظم إليهم.

أشار الدكتور مدحت لي ليرشدني. كان الجميع في أبهى زينتهم، وكأنهم ليسوا هؤلاء الأطباء الذين لهم الشخصية الوقورة والرسمية التي كانوا عليها في المؤتمر صباحاً. تقدمتُ منهم وسلمت عليهم جميعاً مصافحاً الرجال، ثم جلس متوسطاً صديقي الدكتور مدحت والدكتور أيمن.

كانت المائدة عامرة بالمقبلات الشهية وكانوا قد طلبوا لي العشاء أيضا، وكانوا بانتظاري فعلاً، وما أن جلستُ حتى صب صديقي العصير في الأقداح أولاً.

تحدثنا قليلاً عن المؤتمر. وعن الدكتور مجدي يعقوب الذي قدم محاضرة قيمة جداً. ولم نكمل حديثنا، ثمة أعين جاءت تبحث عن مجلسنا، انها أعين الزملاء الذين وصلوا متأخرين، وكانت ملامحهم فرحة ومبتهجة، فقمت لهم لباقةً مني كي يجلسوا. بعد ذلك كنا متشوقين لسماع المزيد من القصة التي سوف تقصها علينا الدكتورة هند وهي كانت على استعداد تام لتواصل تقديمها للقصة، وحكت الحكاية كاملةً.

******

الخاتمة

في اليوم التالي وصلت الدكتورة هند الي مدينة العريش لاستلام عملها الجديد، في حين كان الليل على وشك أن يهبط، تذكرت أنها جاءت مرة الي هذا المكان وقضة ليلة غير هادئة باستثناء الحلم الذي رأته، تتذكر تلك الليلة التي قضتها طويلاً، الآن تتأمل السماء، تتأمل النجوم، وفكرت بكل الدروب التي سلكتها وبالطرق الغريبة التي سلكتها، وتتذكر الطريقة التي حماها الله بها.

وصلت الدكتورة هند الي شقتها ودخلت غرفتها، ثم جلست على سريرها وقد أخذها النوم دون أن تعي. وعندما استيقظت من نومها شعرت بأنها متعبةً ومهدودة الأعصاب من السفر والحضور بالمؤتمر الذي استمرثلاثة أيام. شعرت بأن جسدها ثقيلاً على الحركة لكنها قاومت ببطء متجهةً إلى المطبخ لتعد لها القهوة. نظرت إلى الساعة الحائطية فوجدتها تشير إلى السابعة والنصف صباحاً، أنه موعد عملها فهي الآن تعمل في مستشفى العريش العام، وتعيش في نفس المدينة وفي نفس الشقة مع صديقتها الدكتورة ميس. حينما دخلت غرفة الاستقبال وجدت صديقتها الدكتورة ميس منهمكةً بالقراءة، ومن ملامحها عرفت أنها استيقظت مبكراً

جداً لكي تقرأ، ولمحت أنها تواصل القراءة في رسالتها للدكتوراه التي تحمل عنوان (التنميط الجيني لجين الاديبونكتين للتنبؤ عن أمراض القلب الدموية (مرض القلب الافتقاري).

شعرت للحظات بأنها غير قادرة على التفكير. شعرت بأن رأسها يخلو من أية فكرة، بل انها عاجزة على استعادة تفاصيل أي شيء وصوت الساعة الحائطية تزعجها. ولكن قلبها مبتهج بالأجواء الجميلة التي تراها الآن في مدينة العريش، فهي تعيش فيها بشغف لا يُصدق. كانت الشمس في كبد السماء، الضوء يكتسح العالم بشكل بطيء وتدريجي. العصافير تتساقط تباعاً على أغصان أشجار التين والزيتون المنتصبة بخيلاء وسط الفناء. تختفي العصافير بين الأوراق، والأغصان، حتى يصبح من الصعب رؤيتها. لكن زقزقتها ترتفع بشكل مثير يصل إلى حد الإزعاج. ثم لا تلبث أن تطير جماعة، تغادر المكان دفعة واحدة، كدفقة ريح مفاجئة، لتبحث عن مستقر جديد. همست مع نفسها: فرق كبير بين أن تعيش حراً وأن تعيش عبداً لمن ملكته سرك، من ملكته نفسك، ولا تستعين غير الله في أمرك فأنت قوي حتماً. أيتها الأشباح كم جريمة على الأرض اليوم ترتكب باسمك؟

وتذكرت عندئذ أن عليها الذهاب الي القائد وجنوده لتشكرهم.
واسرت في نفسها: كم هم أقوياء هؤلاء الجنود.

تمت

نهاية الجزء الثاني

شكر

أتوجه بالشكر لدار ميتابوك في نشر هذه الرواية والتي جعلتها في متناول القراء، كما أتوجه بالشكر الي استاذي العالم الجليل دكتور محمد غنيم، ودكتور اسامه العدل ومستر أيمن مراد على مراجعتهم لهذه الرواية، فقد استرشدت برأيهم كثيراً كما افعل في كل كتبي، كما أتوجه بالشكر الي كل قارئ أهتم به وأجتهد كي انال رضاه.

محمد داود

دبي

٢٠٢١ / ٤ / ٣٠

*** صدر للمؤلف دكتور محمد داود (٩) كتب من أهمها:**

١- رواية ثالوث الشيطان – الجزء الأول منها بعنوان (الجثث المفقودة).

٢- رواية ثالوث الشيطان – الجزء الثاني منها بعنوان (أشباح الخيتعور).

٣- رواية النطاسي.

٤- رواية يودايمونيا تحت الطبع.

هذا الكتابة

كانت تستشعر وجود شيء ما في حياتها منذ أن دخلت هذا العالم الخفي المظلم، لكنها لم تفكر لحظة بأن يكون هذا الجني زوجها. أشباحه تطاردها في كل مكان، تهرب منه أحياناً ولكنها تكتشف أنها تهرب اليه! يخرج لها من كل مكان يتطفل عليها في كل ساعة، يذكرها بالماضي، بكل ما حدث لها، فسترجع مسيرة حياتها المؤلمة معه.

في هذه الرواية يختلط الواقع بالخيال وبدلاً من ارشادنا الي ختمة نهائية تنفتح الصفحات على سيناريوهات مختلفة. لعبة أتقنها الروائي كفنون صوغ الحكاية، فتناول العلاقة السحرية التي تتوطد في الأدب ما بين الحياة والحب والموت.

د. محمد داود.

كاتب وروائي مصري ومدرب دولي معتمد، كان يعمل في الأكاديمية البريطانية، ثم مدرساً بمعهد الدراسات الأدبية والفنية بالكويت، حاصل على دكتوراه في علم النفس الاجتماعي، ثم دكتوراه في علم اجتماع الأدب.